دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

آفاق إسلامية

للدكتور عبد الحميد سند الجندي

العدد السابع والسبعون

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

آفاق إسلامية

للدكتور عبد الحميد سند الجندى

« ٧٧ »
السنه السابعة
١٥ من شعبان ١٣٨٧ هـ
١٧ من نوفمبر ١٩٦٧ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة


1987

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ »

« آل عمران الآية ٨٥ »



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله نبى المسلمين ، الذى اجتباه ربه ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

وبعد : فقد شغلت وظيفة أستاذ للأدب العربى بجامعة الجزائر عامين ونيفا . وقد ألفيت أشقاءنا الجزائريين منهومين بالعلم والثقافة العربية ، وبخاصة ما يتصل بدين الاسلام الحنيف ..

ذلك أن الاستعمار الغاشم فرض سلطانه اللئيم على ذلك البلد الاسلامى قرابة قرن وثلث قرن من الزمان . وقد حاول المستعمرون خلال هذه المدة الطويلة أن يطمروا اللغة العربية ، وأن يعفوا على الاسلام ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يستلوا الايمان العميق من نفوس الجزائريين .

ولم يكد الاستعمار ينقشع عن تلك البلاد بعد جهاد بطولى مرير ظل متصلا سبع سنين دأبا رأينا هؤلاء المجاهدين الأبطال ـ

بعد أن تحررت بلادهم من رجس الاستعمار ــ يقبلون فى نهم شديد على تحصيل المعرفة والتزود بالثقافة الاسلامية بعد أن كان الاستعمار يحول بينهم وبين ذلك .

لهذا رأيت ــ بقدر جهدى ــ أن أمدهم بهذا اللون من الثقافة الدينية ، فكنت أنشر أبحاثا تتصل بالاسلام فى مجلتى « المعرفة » و « القبس » اللتين أصدرتهما وزارة الاوقاف الجزائرية على التوالى . وكنت أقوم ــ الى جانب ذلك ــ باذاعة أحاديث اسلامية فى التليفزيون والاذاعة هنالك .. وكان لذلك صدى طيب فى نفوس اخواننا الجزائريين .

وكنت أعتمد ــ بطبيعة الحال ــ فى هذه الابحاث على كتاب الله الحكيم قبل كل شيء ، وعلى أمهات الكتب الكبرى . ومثال مادبجته يراع الأساتذة الأفاضل الذين سبقونى فى هذا المضمار ثم على ما كتبه الباحثون الغربيون الذين نزعوا عن أبصارهم غشاوة التعصب المقيت .

وقد رأيت أن أجمع هذه الأبحاث فى كتيب باسم ...... وتفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ــ مشكورا ــ بنشرها .

وأرجو أن أكون قد أديت بعض مايجب على نحو دين محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . والله أسأل أن يوفقنا لخدمة الدين والوطن والعلم جميعا . وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

التصور الديني عند العرب قبل الاسلام

ان المــراد بالشرك هو اشراك غير الله مع الله فى العبــادة والاتجاه والرجاء والخوف ، وكان هذا عقيدة الشرك العربية قبل الاســلام .

والواضح من النصوص القرآنية أن مشركى العرب كانوا يعترفون بوجود الله ويعتقدون بألوهيته العليا وقدرته العظمى ، سواء فى اشراكهم شركاء واعتبارهم أندادا له ، أو شركاء وسطاء وشفعاء يتقربون بهم زلفى اليه .

وهذا الاعتراف بالله الى جانب شركائهم يعتبر خطوة كبرى فى تطور الفكرة الدينية عندهم . ويزداد ذلك وضوحا اذا لاحظنا أن فى القرآن آيات كثيرة جدا لا يتسع المقام لحصرها فى صدد اعتراف العرب بوجود الله وبقدرته العظمى . وقد ساق لنا ذلك فى سور ومناسبات عديدة ومتنوعة نورد منها مايلى :

يقول تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ؛ وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط

بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » ، ويقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » ويقول : « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » . ويقول : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون » ويقوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون .. » ، ويقول : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » ، ويقول : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » ، ويقول : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » .. الى غير ذلك من الايات الكثيرة التى تدل فى صراحة على أن العرب كانوا يعترفون بالله قبل الاسلام . وهم حينما كانوا يشاقون الرسول عليه السلام انما كانوا ينكرون نبوته ، مع اعترافهم بالله وبألوهيته العظمى .

ونحن حين نتتبع الايات التى تحكى اعترافهم بالله نستخلص منها الأمور الاتية :

أولا : أن أهل بيئة النبى صلى الله عليه وسلم أو فريقا منهم كانوا يعترفون بوجود الله كاله أعظم ، خالق السموات والأرض وما فيهما ، وأنه مدبر الكون وربه ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وأنه هو الذى يسيطر على قوى الطبيعة ويصرفها ، من شمس وقمر وكواكب وبحار ورياح ، ويسخرها لصالح خلقه ، وأنه هو الذى يحيى ويميت ويعطى ويمنع .

ثانيا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتبرون الله الملجأ الأعلى فى عظائم الأمور وأنه — حين تحدق بهم الأخطار والأهوال — لا يكشف الضر ولا يدفع الشر غيره .

وكانوا يجأرون اليه حينما تدهمهم الخطوب والكوارث ، على اعتبار أنه هو القادر وحده على دفع النوائب والأخطار ، لا شركاؤهم ولا شفعاؤهم ولا آلهتهم .

ثالثا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه من عقائد وطقوس ، وتحليل وتحريم انما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه ، وأنه راض عنهم وعما اتخذوه من شركاء وشفعاء ، ويقولون انه لو لم يكن راضيا عن ذلك لما فعلوه .

رابعا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذى يرسل الأنبياء ، ويؤيدهم بآياته ، ويوحى اليهم بكتبه التى فيها أوامره ونواهيه .

ويتضح لنا أن مـا جاء فى الفقـرة الثالثة كان كالحلقة المتوسطة بين تفكير دينى قديم وتفكير دينى جديد ، وأنه يمكن أن يفسر لنا اعترافهم بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء واشراكهم معه بالعبادة والدعاء والاتجاه .

والمفروض أن العرب فى أطوارهم الأولى كانـوا وثنيين . يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، وما انبثق فى أذهانهم من عقيدة وجود الأرواح الخفية الخيرة والشريرة ، وأنهم لم يكونوا قـد تصوروا وجود الاله الأعظم متصفا بالصفات الواجبة له أو ما يقرب منها ثم أخذوا يستوحون صفاته فى أذهانهم شيئا فشيئا حتى دخلوا فى طورهم الأخير الذى كانوا عليه عند نزول القرآن . وهـو التسليم بوجود اله أعظم له ملك السموات والأرض . وبيـده تدبير الأكوان وتسخير القوى الطبيعية ؛ وهو الملجأ الأعلى للناس فى كل ما يصيبهم من بلاء ، والقادر وحـده على دفعه عنهـم ، والمصدر الأكبر لكل ما يرجونه من خير . غير أن عقولهم لم تكن لتستطيع أن تصل الى تصور اله واحـد غير مادى وغير مدرك بالحواس ، مجرد عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسـطاء . فكانوا — مع اعترافهم بالله — لا يرون لهم غنى عن معبـوداتهم الأولى التى كانوا أكثر اتصالا بها واتجاها اليها فى الاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى .

وكانوا يعتقدون أنهم على حق فى ذلك . لأنهم كانوا يذهبون الى أن الله المتصف بصفات القدرة والعظمة والجبروت والخلق

والبسط والقبض ما كان يبقيهم على هذا الاتجاه نحو معبوداتهم المادية والروحية والطبيعية لو لم يكن راضيا عن ذلك . وهذا ـ من غير شك ـ صدى لما كان راسخا فى نفوسهم من عقائد موروثة .

ومن الحق علينا أن نقول ان العرب لم يكونوا فى هذا الأمر بدعا . فقد مر بهذا الطور غيرهم من الأمم الأخرى فى مرحلة من مراحل حياتهم الاعتقادية .

وهكذا نرى من خلال هذه الخطوة التطورية أنهم قد ارتقوا فى تفكيرهم الدينى من عبادة المعبودات المادية والروحية والطبيعية الى فهم معنى الله وتصوره والاعتراف به . غير أن هذه الخطوة لم تبلغ مداها الصحيح ، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى اساغة الاكتفاء بالله وحده ، فكانوا كما عبرت عنهم آية يوسف « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » .

ونستطيع أن نقرر فى غير تحفظ من نصوص الايات القرآنية أن العرب لم يظلوا فى تفكيرهم الدينى فى نطاق المادية والحجرية الجافية كما يدعى بعض المستشرقين .

ويبدو لنا أن فكرة الله وضحت فى أذهانهم قبل البعثة بأمد غير قصير . حيث اشتد اتصالهم بغيرهم من الأمم وكثرت رحلاتهم اليهم ، وحيث أخذت معارفهم تنمو وتتسع . وفى بعض الايات دلالات على بعد عهد ذلك نوعا عن حقبة البعثة الشريفة .

اذ تحكى قولهم انهم وجدوا آباءهم على أمة ، وهم على آثارهم مهتدون ، كما تحكى تواصيهم بعدم اتباع النبى صلى الله عليه وسلم لأنه يصدهم عما كانوا عليه .

ويتبع ذلك — بطبيعة الحال — عدم حداثة لفظ الجلالة « الله » فى اللسان العربى . وقد قال بعض المفسرين — وهو أرجح الأقوال — ان اللفظ مشتق من « أله » بمعنى عبد ، أو « وله » بمعنى حار ، أو « لاه » بمعنى سكن الى الشىء من باب باع . وجوز سيبويه أن يكون لفظ « لاه » أصل اسم « الله » تعالى ؛ قال الشاعر :

كحلفة من أبى رباح   يسمعها « لاهه » الكبار

أى « الهه » أدخلت عليه الألف واللام فجرى مجرى الاسم العلم كالعباس والحسن . ويرى فريق آخر من المفسرين واللغويين أن لفظ الجلالة معدول من لفظ « اللات » أحد أصنامهم ، ثم جعلوه مذكرا حينما انبثق فى أذهانهم معنى وجود الله كاله أعظم .

ويبدو لنا أن « اللات » كانت أعز معبودانهم ، يدلنا على ذلك أن القرآن الكريم قدم ذكرها على « العزى » و « مناة » كما أن الروايات تقدمها فى الذكر ، وخاصة فى الحلف . ولعل فى هذا ما يمكن أن يدل على أن « اللات » كانت صاحبة الاعتبار الأول أو المعبودة الكبرى عند العرب ، ان لم يكن فى عهد النبى ففى الزمن الذى قبله بمدة ما .

وإذا صح هذا كان فيه رجحان الصلة الاشتقاقية أو العدلية بين « اللات » ولفظ الجلالة .

على أنه يجب أن نشير الى أمر ذى بال بصدد وضوح فكرة الله فى أذهان العرب ، ذلك أنهم — على ما يظهر لنا — كانوا يتخيلون الله شيئا يمكن أن يروه ماثلا أمامهم ، يدلنا على ذلك قول الله تعالى : « أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » ، وقوله جل شأنه « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » .

فهذه الآيات - وان كانت تحكى عنهم تعجيزا وتحديا — فانها تدل على أنهم كانوا يتصورون الله شيئا يمكن أن يرى .

ولسنا نشك فى أنه كان للكتابيين أثر كبير فى تلك الخطوة التطورية الدينية عند العرب .. فقد كانت النصرانية منتشرة فى بقاع كثيرة من الجزيرة العربية ، كما كان لليهودية مراكز قوية فى يثرب وخيبر وبعض جهات من اليمن . ومن الطبيعى أن يتأثر العرب بأهل الكتاب أولئك ، وأن يأخذوا عنهم فكرة وجود الاله الأعظم ، ولكنها لم تستطع أن تتغلب على ما كان راسخا فيهم من عقائد موروثة ، فآمنوا من جهة بوجود الله ، واحتفظوا من جهة أخرى بمعبوداتهم وعقائدهم وتقاليدهم .

ثم استمر التطور حسب تفاوت المدارك والبيئات الى أن أخذ يظهر فيهم من يسيغ فهم الله وحده وعبادته والتوجه اليه فهما

غيبيا مجردا ، ويستشعر ما فى عبادة معبوداتهم من سخف وضعة تفكير ، فيأنف من عبادتها وينبذها .. وهم طبقة الحنفاء الذين كانوا يتبعون ملة ابراهيم الحنيفية ، وفى القرآن الكريم آيات وردت عن أهل الكتاب تدل على ذلك .

ويظهر لنا من الايات القرآنية أن فكرة وجود الله والاعتقاد به على هذا الوجه كانت واسعة النطاق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بحيث يسوغ لنا أن نقول انها كانت تشمل البدو والحضر بوجه الاجمال . وعقيدة الشرك التى كانت دين العرب عامة دليل على ذلك ، فاشراك غير الله مع الله سواء كان اشراكا رئيسيا أو غير رئيسى يطوى فيه الاعتراف بوجود الله . وهذا كان ينتظم العرب عامة فى عصر النبى ، باستثناء الاقلية الكتابية منهم .

وقد اعتاد العرب فيما اعتادوه من مظاهر اعترافهم بالله استعمال كلمة « الله » فى أيمانهم ، كما أنهم اعتادوا أن يستعملوا كلمة « اللهم » فى دعائهم ، ومن ذلك قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ، وقوله : « واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » .

وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يستعملونها فى عقودهم وكتاباتهم ، وأن تسمية « عبد الله » كانت كثيرة الشيوع عندهم .

وتحكى بعض الايات أن العرب كانوا يقسمون قبل البعثة بأغلظ الايمان أنهم لو جاءهم نذير من قبل الله ليكونن أهدى من

احدى الأمم « فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا » ، وأنهم لو جاءهم كتاب كما جاء غيرهم من الأمم السابقة لاتبعوه وكانوا عبادا مخلصين لله « وان كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين » . ولا شك أن العرب قد قصدوا باحدى الأمم اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كان لديهم كتب من الله ، والى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » . وفى ذلك دلالة واضحة على استمرار التطور فى التفكير الدينى عند العرب واتجاههم نحو الله ، وعلى ما كان لديهم من المام بأحوال اليهود والنصارى وأثر هاتين الديانتين السماويتين فى هذا التطور .

ويفهم من هذه الايات أن فريقا من الذين كانوا يعترفون بوجود الله وبأنه الملجأ الأعلى والاله الأعظم أخذوا يرون أنفسهم فى عماية عن الطريق السوى المستقيم حين يتخذون لله شركاء فى الدعاء والخضوع والاتجاه ، فصاروا يتمنون أن يبعث فيهم نبى بالبيان الواضح والصراط القويم حتى يتبعوه ويهتدوا به .

ويفهم منها أيضا أن فريقا من العرب كانوا يسمعون أخبار الكتب السماوية التى عند اليهود والنصارى وأخبار الأنبياء وسائر الرسل ، وما فى هذه الكتب من شرائع وبينات جعلت أتباعها يرون أنفسهم أنهم على هدى من الله ، وعلى علم بصفاته وبحلاله وحرامه . وكانوا يرون من اليهود خاصة زهوا واستعلاء بسبب أن

بعض الرسل والأنبياء منهم ، ولاعتقادهم أنهم الشعب الذى اختاره الله لرسالاته . فأثار هذا غيرة ذلك الفريق العربى وجعله يتمنى ويتطلع الى نبى يبعثه فى العرب ليهديهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وبخاصة وأنه يؤمن بوجود الله الذى يؤمن به اليهود النصارى والذى يرسل الأنبياء الى الأمم بالكتاب والبينات ، واذ ذاك يكون للعرب من الفخر والاعتزاز بنبوة عربية وكتاب سماوى عربى مثل ما كان لليهود والنصارى والعرب – كما نعرف–أصحاب نعرة ولا يحبون أن يستأثر غيرهم بفضل دونهم.

ولا يبعد أن يكون بعض العرب قد سمعوا من الأحبار والرهبان بشرى واقتراب بعثة نبى عربى ، فكان من المرتقب أن يكون العرب – اذا بعث فيهم النبى – أهدى من الأمم الأخرى . وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك ، كقوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل» ولايمكن أن يكون موضع ريب أن تشير آية قرآنية الى هذا وهى تتلى جهرة يسمعها اليهود والنصارى ما لم يكونوا يجدون فى كتبهم الدينية صفات هذا النبى الأمى بأسلوب ما ويبشرون بقرب ظهوره . ومن المحقق أن علم هذا لم يفت العرب أو لم يعزب عن فريق منهم فى بيئة النبى صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى يقول : « واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

وقد يكون من الطبيعى بعد هذا أن يرد على الخواطر هذا السؤال : ما الذى دفع العرب الى معارضة الدعوة المحمدية بعد أن بلغ بهم التطور الدينى هذا المبلغ ، وبعد أن كانت نفوسهم تصبو الى أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ؟ وما سر هذا الموقف المتناقض ؟

وليس من العسير الاجابة عن هذا السؤال ، فالمعروف أن موقف جمهرة العرب من الدعوة الاسلامية ، وبخاصة فى العهد المكى ، كان بتأثير زعماء مكة وكبرائها وسادتها وأغنيائها وذوى الرأى فيها .. هؤلاء الذين زلزلت الدعوة من مكانتهم وعلوهم واستكبارهم . والايات القرآنية تشير بوضوح الى أنه كان هناك عوامل عديدة غلبت زعماء مكة على أمرهم وأوقعتهم فى هذا التناقض العجيب ..

منها الحسد ، والاستكبار ، والترفع عن اتباع النبى بالذات ، واستخفافهم بشأنه ، وغيظهم من أن يختص هو بالرسالة الالهية من دونهم ، وهم يرون أنفسهم أعلا مقاما وأضخم ثروة وأعظم جاها وأسمع كلمة منه .. ويدلنا على ذلك قول الله تعالى : « فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيىء ، ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » ، وقوله : « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، وقوله : «أأنزل عليه الذكر من بيننا .. »

ومنها الخشية من ضياع ما كان لهم ولبلدهم مكة من امتيازات عند العرب ، وما كان يعود عليهم من منافع من وراء هذه الامتيازات التى كانت تقوم على وجود الكعبة ومناسك الحج فى مكة ، وعلى ما لمنطقة البيت المحرم من الأمن المفروض. كما جاء ذلك حكاية صريحة عنهم فى قوله تعالى : « وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نسكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا » . فهذه الآية تدل على أن زعماء مكة قد تصوروا أن متابعة النبى ستؤدى الى القضاء على كل ما كان لهم ولبلدهم من الامتيازات والتقاليد فضلا عما فى ذلك من فقد أسباب معاشهم ومظاهر عزتهم وحرماتهم . وبهذا كانوا يوغرون صدور سواد مكة ضد دعوة النبى صلى الله عليه وسلم .

ومنها عصبية التقاليد التى كانت متغلغلة فى أعماق نفوسهم ولم يكن من السهل انتزاعها . اذ تتضاءل معها قوة المنطق وناصاعة البرهان ، وكانوا اذا أفحموا بالحجة قالوا : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » و « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » .

ومنها الصورة التى تصوروها للنبى ولمظهر النبوة . والتى تصور ناحية من تفكير العرب فى عصر النبى . ثم ما رأوه من تناقض لها فى شخص النبى ومظهره وقدرته .. فقد تصوروا أن النبوة تضفى على النبى ما هو فوق الطبيعة البشرية . مما يجعله

يصبح قادرا على خرق النواميس الكونية . وقد كان لما عرفوه من قصص الأمم والأنبياء أثر ما فى هذه الصورة من غير ريب . وهذه القصص لم تكن مجهولة فى الأوساط العربية قبل البعثة . وفيها كثير من المعجزات المادية الخارقة التى زود الله بها أنبياءه ليؤدوا رسالات ربهم . كمعجزات موسى وعيسى وابراهيم وداود وسليمان وغيرهم من الرسل ، فتصوروا محمدا على تلك الصورة التى ساعد على قيامها فى أذهانهم ما سمعوه وما عرفوه عن الأنبياء السابقين ، ثم رأوه يخبرهم أن الله قد أرسله لهداية الناس الى دين الحق ، ويتلو عليهم آيات الكتاب التى نزلت عليه بينما هو بشر مثلهم ، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون . ويمشى فى الأسواق كما يمشون « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » . ووجدوه يعتريه ما يعتريهم من أعراض ، ويحتاج الى ما يحتاجون اليه من شئون ، ويتمتع بما يتمتعون . ولم يروا فيه صفة خاصة ، ولا علامة بينة ولا قوة خارقة ، ولم يشاهدوا الملائكة التى تنزل عليه ، فدهشوا من هذا ، وطالبوه بالآيات والمعجزات كما فعل الأنبياء السابقون .. كأن ينزل الملائكة من السماء ، أو كتابا مكتوبا يلمسونه ويقرأونه ، أو يفجر الأنهار والينابيع . أو يحيى آباءهم الأولين .. الى غير ذلك من المطالب التى حكتها الايات القرآنية ، من مثل قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من

نخيل وعنب فتنفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

ومنها عقيدة البعث بعد الموت ، وكانت ركنا من أركان الدعوة الاسلامية ، وقد كان انكارهم لها شديدا عنيفا . وقد ذكر القرآن آيات كثيرة تدل على الانكار والتحدى والاعراض والسخرية التى كان العرب يقابلون بها انذار القرآن وتبشيره عن اليوم الاخر وبعث الناس بعد موتهم لمحاسبتهم عما فعلوه فى حياتهم الدنيا ، وتوفية كل نفس ما عملت من خير وشر ، ومجازاة المؤمنين بالجنة والمغفرة والرضوان ، والكافرين بالنار والخزى والخسران .

وتدل كثرة الايات التى تناولت اليوم الاخر والحساب والثواب والعقاب ــ بالاضافة الى ما ينطوى فيها من حكمة ربانية وحقيقة ايمانية ــ على أن مشكلة البعث والحساب لم تكن قائمة فى أذهان بعض الطبقات دون بعض ، وانما كانت مشكلة الجميع ، فلم يكونوا يتصورون أن الناس بعد أن يصبحوا ترابا يبعثون ثانية ليحاسبوا على ما كان منهم فى الحياة الدنيا من خير وشر وايمان وكفر .

والظاهر أن عدم وجود بيـــان صريح ووصف واضـــح عن البعث واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب فى الديانتين اليهودية والنصرانية كان من أسباب تعقد المشكلة فى أذهان العرب ومقابلة الوعد والوعيد بالاعراض والسخرية والاستخفاف ، اذ لم يسبق لهم أن تهيأت نفوسهم لاساغة هذه الحقيقة الايمانية الغيبية ، كما كان الشأن فى اساغة فكرة الله المجـــردة ، وفكرة الملائكة ، وبعثة الأنبياء بما معهم من الكتب والمعجزات .

مزية الاسلام الكبرى
(أنه تشريع صالح للبشر جميعا)

١

الاسلام ، ديننا الحنيف ، تشريع سماوى عام ، اعتمد على المنطق وعلى العقل ، فكان بذلك عبقريا لبقا . وقد جاء بعد ديانتين سماويتين تختلفان فى جوهرهما كل الاختلاف .

فالمعروف أن الطبيعة التى اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة والقسوة والأثرة والأخذ بأساليب ذلك والتفانى فيه . بينما جاءت الديانة المسيحية على عكس ذلك تماما ، فقد دعت الى المسالمة والرحمة والتسامح والسعى للآخرة والتغاضى عن الحقوق متى كان فى الحصول عليها قوة وشدة وخصام . وفى ذلك يقول المسيح : « قال صاحب التوراة : النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص ، وأنا أقول : اذا لطمك أخوك على خدك فأدر له خدك الأيسر » .

. والانصاف يدفعنا الى أن نقرر فى ثقة وقوة أن المسيحية بمبادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم اللوازم للانسانية فى تلك المرحلة التى ظهرت فيها . فقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس فى الأنانية ومن المصالح الشخصية . ومن حب المادة والتهالك عليها بكافة الوسائل وشتى السبل .

ولو تعمقنا البحث فى أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة المسالمة لوجدنا أنها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها ، وعملت على تحطيم قوانينها التربوية والأخلاقيـة التى اصطلحت عليها أجيالا بعد أجيال ؛ وتمادت على العمل بهـا من أزمان غابرة سحيقة . فقد جاءت لتعالج المشـكلة الانسانية من ناحيتها الطبيعية ، فكانت كما قلنا ثورة على قوانينها الاخلاقية وما اصطنعته انفسها من تقاليد وعادات كلها ترمى الى تحديـد شريعة الغابة ، حيث يكون كل شىء للقوى و لاشىء للضعيف . حتى اننا نجد القانون الرومانى ــ وقد أخذ من غير شك بيـد الانسانية الى الأمام وأوجد شيئا من العدالة وتنظيم الحقـوق والواجبات بين الناس جميعا ــ أقول ان هذا القـانون الرومانى كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة آخرى . وكان يشرع الاستعمار للاستعباد واستغلال الضعفاءولم يكن يؤمن بالتساوى بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى . فلمـا جاءت المسيحية لا تقر هذا الوضع حدث بينها وبين هذا القانون صدام عنيف أدى الى انكماشه .

بهذه الروحانية الصافية الخالصة كان المسيح عليه السلام يحاول أن يلغى من نفوس بنى اسرائيل الأثرة والأنانية وحب الذات والتعصب الأعمى حتى فى العبادة،ويقول أستاذنا المرحوم عباس محمود العقاد : كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب الى دولة أجنبية ، فرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى (١) .

٢

جاء الاسلام والحال كما عرفنا ، اسراف لئيم فى المادية والأثرة ، واسراف سام فى الروحانية والايثار ، فكان قواما بين النقيضين .. ولم يقتصر على التشريع المادى فقط لأمة محدودة كالديانة اليهودية ، كما لم يحفل الا بالناحية الروحية فقط كالديانة المسيحية ، وانما جمع بين الناحيتين . وأراد أن يساير المرحلة التى بلغتها الانسانية ، فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول أمره جاء داعيا الانسانية جمعاء اليه والى الانضواء تحت لوائه ، وانه جاء عاملا على التعاون والتآلف الانسانى بطريقة عملية فى غاية الروعة والكمال . ولعل من أهم الدعائم التى وضعها لذلك وقامت عليها مبادئه المساواة التامة بين الناس جميعا .. وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : الناس سواسية كأسنان المشط ..

---

(١) كتاب « الله » ص ١٢٣ .

وليس معنى ذلك أن الاسلام ينكر سنة التفاوت الذى هو ناموس طبيعى لا محيص عنه ولا يصح أن ينكره منكر مهما كابر بل انه يقر التفاوت بين الناس فى جميع المزايا التى يتفاضلون بها وينتظم عليها العمل فى الجماعة البشرية . فهم متفاوتون فى العلم والفضيلة « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

وهم متفاوتون فى الجهاد الروحى والقدرة على الاصلاح « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

وهم متفاوتون فى الرزق وأسباب المعيشة « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » . « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ، والنبى الكريم يقول : « الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا » .

ولكن هذا التفاوت لا يرجع الى عصبية فى الجنس أو الأسرة ، اذ لا فرق بين انسان وانسان فى نظر الاسلام « انما المؤمنون اخوة » . ولا فرق بين أمة وأمة ولا بين قبيلة وقبيلة ولا بين أحد وأحد الا برعاية الحقوق والواجبات « يأيها الناس انا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » . فالتعدد فى الأمم وسيلة التعارف والتعاون ، وليس وسيلة الادعاء والتنابذ والتعصب للأجناس والتعالى بالعصبيات كما نراه اليوم فى العالم المتحضر فى أمريكا وجنوب افريقيا .

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآيات البينات بأحاديث فى معناها فقال : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » وقال : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » . وكان عمر رضى الله تعالى عنه يتكلم عن الصديق أبى بكر ويشير الى بلال الحبشى فيقول : « هو هو سيدنا وأعتق سيدنا » .

فالاسلام ــ بهذه الأحكام المفصلة ــ قد أعطى المساواة حقها وأعطى التفاوت بين الآحاد والطبقات حقه .. فلا يمتنع التفاوت ، ولا يكون مع هذا سببا للظلم والاجحاف بالحقوق ، بل سببا لاعطاء كل ذى حق حقه ، ولو كان من المستضعفين فى الجنس أو المستضعفين فى المنزلة الاجتماعية . وباقرار التفاوت أقر الاسلام أصلح النظم التى تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة فى كل زمان ومكان .

٣

والحق أننا لو قارنا بين الدين الاسلامى والديانين الأخريين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشرى لكان ذلك وحده كافيا على صدقه وحاجة الانسانية اليه . فالدين المسيحى قد وجد نوعا من التعاون الانسانى ، ولكنه كان ضئيلا وغير عملى لوجود النظام الكهنوتى فيه . وجاء كذلك منكرا المادة . داعيا الى الروح والى الزهد والقناعة وعدم الأخذ بأسباب الدنيا والسعى فيها .. فالانسان يأتيه رزقه من غير أن يحرك ساكنا ، يقول المسيح عليه السلام مخاطبا اليهود : « انظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن ، وأبوكم السماوى يقوتها ، ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها . من منكم اذا اهتم يستطيع أن يزيد على ما قدر ذراعا واحدة ؟ » . هذا هو لب الدين المسيحى ، ولذلك ظهرت فيه الرهبنة والكهنوتية .

أما الاسلام فجاء منكرا لهذا النظام الكهنوتى كل الانكار ، يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانية فى الاسلام » . كما جاء حاثا على السعى فى الدنيا والتمتع بطيباتها . يقول تعالى: « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول جل شأنه : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، ويقول تبارك وتعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ، ويقول

الرسول الكريم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وفى هذا الحديث اشارة واضحة الى أن الرسول يريد الجمع بين الناحيتين : الناحية العملية المادية والناحية الروحية .

ويذكر أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : جاء ثلاثة رهط الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : أما أنا فانى أصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فقال الرسول عليه السلام : « أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

والاسلام ينهى عن التواكل والقعود عن السعى فى طلب العيش . وهو بذلك يرمى الى غرضين عظيمين : أولهما : تحقيق ذاتية الفرد ، وثانيهما : بذل الجهد فى سبيل الارتزاق حتى يشعر المرء بمتعة الثمرة التى يجنيها بحبات عرقه ، وفى الوقت نفسه يقى نفسه ذل السؤال .. وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، ويقول الفاروق عمر : « انى لأرى الرجل منكم فيعجبنى ، فاذا قلت : أله صنعة ، فقالوا : لا ، سقط من عينى » .

وكانت الناحية الروحية عند الاسلام موضع عناية كبرى ، والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الدالـة على ذلك كثيرة لا يعيها حصر .. فالله تعالى يقرر فى كتابه العزيز أن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأن لهـا ما كسبت وعليها مـا اكتسبت ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .. الى غير ذلك من الآيات التى تدعو فى شدة الى العمل للآخرة والتزود بخير الزاد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . أما الأحاديث الشريفة فحسبى أن أسوق منها هذا الحديث : يقول الرسول الكريم مخاطبا أهله :
« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب ، لاأغنى عنك من الله شيئا ، ويافاطمةبنت محمد سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » .

والاسلام بذلك يقرر التبعية الفردية التى تشعر المرء بعزته وكرامته وتحقق شخصيته الذاتية « قل يأيها النـاس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

وما من فضيلة حث عليها الاسلام الا كان تقدير جمـالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسى الشخصى ولا يضطر صاحبها أحد الى فعلها . فالحق الذى تعطيه ولا يضطرك أحد اليه هـو أجمل الحقوق وأكرمها عند الله ، وأخلقها بالفضيلة الانسانية .

٤٠

وهكذا نرى الاسلام جاء وسطا معتدلا بين الديانتين . وهو بذلك متفق مع طبيعة النفوس ومع طبيعة الأشياء والحوادث . فلم يستعمل القوة الا فى المواضع التى تحتاج الى القوة . ولم يكن شديدا صارما الا فى كل ما هو حق وواجب فقانونه الأخلاقى قائم على ما يتفق وسيكلوجية النفوس وظروف الزمان والمكان .. فقد أشاد بمبدأ القوة فى الأمور التى تحتاج فى علاجها الى الشدة والصرامة ، وحبب الرفق والتسامح والصفح فى الظروف التى توجب ذلك . وأحيانا يخير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو اذا لم يكن فى ضياع حقه مضرة لنفسه أو المجتمع . بل انه وقف أحيانا بين الانسان وبين أن يفرط فى ماله حتى ولو كان الصدقة اذا كان غير فائض عليه يحتاجه لنفسه أو لأولاده .. فقد روى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه انتابته علة وازمت داره فعاده النبى صلى الله عليه وسلم . وكان سعد قد ارتأى أن يتصدق بثلثى ماله أو بماله كله تقربا الى الله تعالى . فسأله النبى عما ترك لولاده . فقال سعد : يغنيهم الله من فضله . فلم يقبل النبى أن يتصدق بغير العشر . وما زال سعد يراجعه حتى رضى عليه السلام بالثلث وحرم الزيادة فوق ذلك وقال : الثلث والثلث كبير .. انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

فاسلام كما نرى جاء بعد أن ظهرت ضرورة ملحة فى تصحيح العقيدة الالهية وفى تكييف التعاليم السماوية ، متفقا مع التطور الانسانى والتقدم البشرى ، فأخذ يعمل فى غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها . ولم يضع حوائل أو شروطا تحول بين انسان كائنا من كان وبين أن يكون مسلما الا أن ينطق بالشهادتين ، بل انه كان يشجع ضعاف الايمان على الدخول فيه ويحببه اليهم ، فجعل لهم نصيبا فى الزكاة وسماهم « المؤلفة قلوبهم » .

وبينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببنى اسرائيل وحدهم ، والمسيحية نزلت فى أول أمرها لليهود فقط ، ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود ، حتى دعا « بولس الرسول » غيرهم من كافة الناس للانضواء تحت لوائها ــ نرى الله تعالى يرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

والمسيحية ــ كما نعرف ــ لم تأت بتشريعات سماوية تكون قانونا للناس يسيرون على ضوئه فى دنياهم ؛ وانما انتهى بها الأمر الى أن تحارب التشريعات اليونانية والرومانية ، وأن تقف فى النهاية حجر عثرة فى سبيل تطورها ؛ لذلك كان العالم فى مسيس الحاجة الى ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتتمشى مع الناموس الطبيعى للحياة ؛ حيث المادية وحدها غير قادرة على السير . وحيث الروحانية وحدها غير كافية لتنظيم شئون الحياة

الدنيا . فكان لابد من وجود ديانة تمزج بين الاثنتين وتجمع بين الناحيتين ، فذلك أجدى على البشرية فى أسمى أوضاعها .

وما أصدق أحد كبار أدباء الغرب المنصفين ، وهو برناردشو Bernard show حين أدلى برأيه صادقا فى الاسلام حيث قال : لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة . وانه الدين الوحيد الذى يستطيع أن يكون جوابا مقنعا لكل جيل من الناس .. وانى أتنبأ بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا .. وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .. ولقد درست محمدا باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، ويجب أن يدعى منقذ الانسانية .. كما أدرك كارليل وجيته وجيبيون القيمة الذاتية لدين محمد وسمو شأنه . ويبدو أن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، حتى ليمكن أن يقال ان تحرك أوربا الى الاسلام قد بدأ فعلا » (١)

٥

ولقد نزل كتاب الاسلام على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، فكان أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى ، وسما بها فى فترة قصيرة الى مكانة سامقة من الرقى والسمو لم تكن لتبلغها فى عدة قرون ، وأنشأ

(١) برنارد شو فى مسرحية :
Captain Brassbound's Conversation P. 123:

امبراطورية ضخمة متفاسحة الأرجاء لم يعرف التاريخ لها مثيلا في سرعة نموها وترابطها وتماسكها ، وما ســادها من عــدل ومساواة وما امتازت به من حيوية وازدهار .

جاء الاسلام خاتما للدعوات الالهية ، فكان لابد أن تتوفر فى طبيعته المرونة التى توائم التطــور الزمنى والرقى البشرى ، فعول فى نشر دعوته قبل كل شىء على العقل وجعله مناط الايمان بمبادئه الكبرى . فكان يخاطبه في كل أمر من أموره ويحكمه فى كل شأن من شئونه ، وفى ذلك يقول النبى الكريم : « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له » . ومن مبادئه المعروفة أنه اذا تعارض العقل مع النقل « أى النص » أخذ بما يتفق مع العقل . وذلك يدل من غير شك على تقديره للعقل وعلى عدم معارضته للفلسفة والعلم الذين لهما أثر من آثار الاجتهــاد العقلى . فهو يعتمد على العقل فى تأويل أحكامه بما يتفــق وطبيعة الأشــياء وظروف الزمان والمكان .. يقول الأستاذ الامام محمــد عبده فى « رسالة التوحيد » : « أجمع أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر الى الله فى علمه . والطريق الثانى تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل » (١) .

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٠ .

والحق أننا لو تعمقنا البحث فى أحكام القرآن وفى أوامره ونواهيه لوجدنا أنه كان يرمى فى كل ذلك الى وضع قانون أخلاقى غاية فى السمو والكمال ، لأن العالم اذ ذاك كان خالى الوفاض من الرصيد الخلقى ، ولم تكن تعوزه الفلسفة التى برع فيها سقراط وتلميذاه أفلاطون وأرسطو . كما لم تكن تعوزه نظريات القانون الرومانى المادى التى تنظم العلاقات بين الناس على نحو خاص ؛ وانما كانت هذه الفلسفة وذلك القانون فى حاجة ملحة الى تطعيم قوى بالناحية الخلقية .. فأرسطو الذى وضع كتاب « الأخلاق » كان يحبذ الاغارة على الأمم المتبربرة واستعبادها؛ لأن الله — فى زعمه — لم يخلق الناس سواسية ؛ وانما خلق بعضهم سادة كاليونانيين . وبعضهم الآخر عبيدا كغيرهم من الأمم الأخرى .

والقانون الرومانى كان هو الآخر يشجع نظام الطبقات ويبرر الاستعمار والتسلط على الأمم المستعمرة لاستنزاف اقتصادياتها .

أما الرسالة المحمدية فقد جاءت لتحقق أهدافها السامية بما رسمت من قواعد ومبادىء . وكان النبى الكريم وكبار صحابته فى سلوكهم وتصرفاتهم خير أسوة تقتدى لتقرير هذه المبادىء .

وحياة محمد صلى الله عليه وسلم صفحة رائعة ومثال سام للخلق القويم من الوفاء والصدق والتواضع والايثار والمحبة .

ولم يعرف عنه أنه منح نفسه امتيازا أو سلطة خاصة . وكثيرا ما كان ينزل على رأى يخالف رأيه اذا وجد فيه صوابا . والمنصفون من مفكرى الغرب فى العصر الحديث يعترفون بذلك . وفى مقدمة هؤلاء الغربيين المفكر الانجليزى « ب. سميث » فى كتابه « محمد والدين المحمدى » . انه يقول : ان أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات . فأى شىء قال انه يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ، ولم ينسب أحد منهم اليه معجزة من المعجزات . بل ان محمدا نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته على الاتيان بها .. فأى دليل اذن أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسوقه انسان ؟ لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به الا أنه نبى مرسل من عند الله . واذا كان لأى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من السماء فهو محمد . لقد كانت له كل السلطات دون أن يكون لديه أداتها .. وكان عادلا نبيلا ، فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه اذا ما استبانوا وجه الحق واتبعوا دعوته . وقد كان موقف مكة العدائى الطويل يحمل على البطش بهم بعد فتحها والتغلب على كفارها ، ولكنه عفا عنهم ، مدفوعا بكرم خلقه ، ملقيا بذكريات الماضى بما فيها من اهانة وسخرية واضطهاد وتصد فى زوايا النسيان .. الخ » (١)

وتحدث الكاتب الأمريكى « واشنجتون ارفنج » فى كتابه «حياة محمد » فقال : لقد احتفظ محمد — وهو فى أوج سلطانه

B. Smith : Muhammad and The Muhammedan Religion P. 42.

ــ بسالة الخلق التى عرفت عنه فى كل أدوار حياته . وكان يكره اذا دخل مكانا أن تؤدى له تحية غير عادية (١) .. ولم يكن له ملجأ فى أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله . وعندما وقف على سرير ابنـــه ابراهيم ساعة احتضـــاره كان التســـليم لارادة الله واضحا فى سلوكه ، بينما كان يعانى أقصى ألوان الحزن . وكان عزاؤه أنه سيلتقى به ثانية يوما ما فى جنة الخلد » (٢) .

أما كبار صحابته ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ فـــكانوا القدوة الصـــالحة لقوة الخلق والعـــدل والتواضع والتحـــاب والتسامى . والمقام لا يتسع لذكر الأمثلة الكثيرة الدالة على ذلك . بيد أنى أذكركم بقول الصديق أبى بكر ــ رضى الله عنـــه ــ حين ولى الخلافة : أما بعد فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتمونى على حـــق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطـــل فسددونى . ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هـــذا وأستغفر الله لى ولكم » . ونحن نستشعر فى هذا القول التواضع الجم ، والاعتصام القوى بحبل الدين ، ومناصرة الحق مهما يكن أمره . وأذكركم بقول عمر فى احدى خطبه : الا انى والله مـــا أرسل عمالى اليكم ليضربوا أبشـــاركم (اى جلودكم) ، ولا

(١) وفى ذلك يقول عليه السلام « لست من ملوك العجم أو الروم ، انما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » .

Washington Erving : Life of Mohammed P. 105.

ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الى . فوالذى نفسى بيده اذن لأقصنه (أى آخذ منه القصاص) . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت ان كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لمقصه ؟ فقال عمر : والذى نفس عمر بيده لأقصنه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم،ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .. الخ » (١) . وأذكركم كذلك بصنيعه مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ، فقد أسلم هذا الملك وأسلم معه قومه ، ففرح بذلك عمر بن الخطاب ، وأكرم مثواه لما وفد عليه . وبينما كان جبلة يطوف يوما بالكعبة اذ وطىء أعرابى على طرف ازاره فانحل ، فالتفت اليه جبلة ولطمه على وجهه ، فشكاه الأعرابى الى الخليفة عمر ، فأمر عمر باحضاره وأوقفه أمامه بجانب الأعرابى وقال له : اما أن يلطمك الأعرابى كما لطمته . واما أن تفتدى منه اللطمة بالمال ان قبل هو ذلك ، فقال الملك : أما يفرق بين الملوك والسوقة ؟ فرد عليه عمر بملء فيه : « لا.قد سوى بينكما الاسلام » فانصرف جبلة مغاضبا وارتد الى نصرانيته . ولكنه بعد أن ذهب عنه الغضب وثاب الى رشده ندم

تنصرت الأشراف من عار لطمة
وما كان فيها — لو صبرت لها — ضرر

(١) انظر امالى المرتضى ٢ /١٠٨ .

تـــكنفنى فيهـــا لجـــاج ونخـــوة
وبعت لهـــا العـــين الصـــحيحة بالعـــور

فيـــاليت أمى لـــم تلـــــدنى ، وليتنى
رجعت الى القـــول الذى قالـــه عمـــر

على فعلته ، وأنشأ قصيدة يبدى فيها ندمه ، يقول منها : (١)

فأنت ترى هذا الخليفة العظيم يحقق المساواة التامة التى نادى بها الاسلام . ثم انظروا الى تواضع عمر فى القصـــة التى ذكرها الطبرى ، ونحن نوجزها لك فيما يلى :

لما اتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهـــل القادسية من حين يصبح الى حين انتصـــاف النهار ، ثم يرجع الى أهله ومنزله . فلما ألقى البشير سـأله من أين ، فأخبره . قال ياعبد الله حدثنى . قال : هزم الله العدو .. وعمر يخب معه ويستخبره ، والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة . فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ! فجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى ! لا عليك يا أخى ! .

---

(١) اقرأ القصة والقصيدة كلها فى كتاب الامامة والسياسة ١/٦٢ .

وأبلغ من ذلك دلالة على التواضع والرحمة أنه لما انتصر المسلمون فى حروب الشام ذهب عمر الى مدينة دمشق ليعقد المعاهدة واستصحب معه رفيقا له ، ولم يكن معهما الا مطية واحدة ، فكان عمر يراكب مرحلة ثم ينزل ويأمر رفيقه بالركوب مرحلة ويمشى خلفه . ولما وصل الى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه . فدخل المدينة على هذه الصورة ، ولم ير فى هذا غضاضة. فلما رأى الناس منه ذلك دهشوا من تواضع هذا الخليفة العظيم ورحمته ، وأقبل الكثير منهم على الاسلام بقلوب راضية (١) .

وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ــ اشترى ثوبين ، أحدهما أنفس من الآخر ، فأعطى عبده خيرهما وأثمنهما ، واستبقى الآخر لنفسه ، فقال العبد : أنت يامولاى أحق بهذا الثوب ، فقال له على : كلا انك شاب تزهو بزيك ، أما أنا فقد هرمت (٢) .

الحق أن هذه الخلال الحميدة وتلك التصرفات السامية النبيلة تعتبر مثلا عليا يتأسى بها الناس فى كل زمان ومكان . وهذه الصفات هى التى جعلت هؤلاء البدو الرعاة سادة العالم وقادته حين كانوا يستمسكون بعروة الدين ويعتصمون بحبله .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩٨ .
(٢) مقاتل الطالبين للأصفهانى ص ٢٠٧ .

وبذلك استطاعوا أن يقيموا حكومة قوية راسخة ، فيهـا كل مقومات الحكومة الرشيدة التى يتصايح بها فلاسفة النظم الدستورية فى العصر الحديث .

واذا كان لنا أن نصف الحكومة التى نص عليهـا القرآن الكريم بصفة من صفات الحكومة العصرية فقد حق لنا أن نقول انها الحكومة الديموقراطية فى أصلح أوضاعها ، لأنها حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية كما نص على ذلك كتاب الله فى أكثر من موضع ، مثل قوله : « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم فى الأمر » ، وقوله : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، وقوله : « انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » ، وقوله : « وما أنت عليهم بجبار » ، وقوله : « لست عليهم بمسيطر » .. الى غير ذلك من الآيات . وجملة مايقال فى هذه الحكومة لقرآنية أنها الحكومة التى تكون لمصلحة المحكومين ، لا لمصلحة الحاكمين .. يطاع فيها الحاكم ما أطاع الله ، فان عصاه فلا طاعة له عليهم « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » ، « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » فكل أركان « حكم الأمة للأمة » قائمة فى هذه الحكومة القرآنية .

(٦)

لقد جاء الاسلام ـ كما نرى ـ والعالم فى مسيس الحاجة الى رسالته السامية العظيمة التى ردت للبشرية كرامتها ، ورفعت من قيمة الفرد ، وجعلته يشعر بعزته فى ظل الاسلام ، وبالمساواة التامة فى الحقوق والواجبات ، يستوى فى ذلك الصغير والكبير والحر والعبد ، والرجل والمرأة .

وكان النبى وصحابته يعاملون مواليهم أكرم معاملة . بل انهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم فى كثير من الأحيان كما رأينا؛ فلا عجب اذا رأينا أسامة بن زيد مولى الرسول عليه السلام لايرغب فى أن يتركه ويذهب مع أبيه الى مكة ليعايشه ، ويؤثر البقاء مع الرسول الكريم لسمو معاملته وجلال شمائله ونبل رعايته التى تفوق عطف الأبوة ، حتى انه أمره على الجيش الذاهب الى الشام ، وفيه عدد كبير من كبار الصحابة وعظماء قريش كانوا يحاربون تحت امرته .

مما سبق ندرك فى غير عسر أن الاسلام جاء صالحا للناس جميعا ، و نهساير سنة التطور وناموس التدرج الانسانى . ولم يكن فى تشريعاته يخص البيئة التى انبثق منهـا ، وانما كان فى كل ماشرعه مراعيا الانسانية كلها على مر العصور والأزمان فى بقاع الأرض جميعا .

ونحن اذا نظرنا الى التشريع الاسلامى وجدنا أنه يستمد مواده من مصادر أربعة :

أولها : الكتاب ، وهو القرآن الكريم فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهى ، سواء فهم ذلك من صريح عبارته ، أو عن طريق الاشارة أو الدلالة .

ثانيها : السنة ، وهى كل ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . وهى تستهدف تفصيل ما أجمله القرآن . أو تبيان ما سكت عنه ، بشرط أن يتفق وروح القرآن ويهضمه العقل الناضج البصير ، لنخرج بذلك الأحاديث المدسوسة على رسول الله .

ثالثا : الاجماع ، وهو اتفاق أغلبية أهل الحل والعقد والثقات من مجتهدى المسلمين على رأى من الآراء فى أمور الدين والدنيا ؛ فيصبح بذلك قانونا شرعيا يجب الأخذ به .

رابعا : القياس . وهو الحاق فرع بأصل ، ويكون ذلك فى الأشياء التى لم يرد فيها نص . فالانسان يحكم عقله . مستهديا روح الكتاب والسنة ، ويقيس ما يعرض له على ضوء الغاية من التشريع ، وعلى ضوء ادراك العلة فى الأمر والنواهى.

هذه هى المصادر الأربعة التى تعتبر منبعا للتشريع الاسلامى، وقد وجدت على هذا الترتيب المتسلسل . فالقرآن فى المقدمة لأنه الأصل فى التشريع ، قال تعالى : « مافرطنا فى الكتاب من

شيء » وقال جل شأنه : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ولأنه جاء عاما جامعا شاملا لكل التشريعات الالهية التى سبقته ، يقول الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » . ولكنه راعى سنة التطور وعوامل البيئة وظروف الزمان والمكان . ونراه يضع لبعض الأوامر والنواهى حدودها ويفصل أغراضها أحيانا ، وأحيانا أخرى يدعو الى أمور مجملة ليس فيها شيء من التفصيل والتحديد ، مثل اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وبعض العبادات الأخرى والمعاملات ، وترك تفصيلها لأقوال الرسول وأفعاله ، وللمصدرين الأخيرين وهما الاجماع والقياس .

ثم انه ترك أشياء غير غافل عنها ، لأنه — كما قلنا — جاء مرنا مسايرا حاجات الناس واختلافهم فى ظروف الحياة وفى جميع الأطوار جيلا بعد جيل . فلم يشأ أن يقيدهم فى دائرة مقفلة من القوانين التى لاتساير مصالحهم ولا تنهض بمطالبهم . يقول الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف : من الأمور التى روعيت فى التشريع التقليل من التقنين . وهذا يتجلى فى أن الأحكام التى شرعها الله ورسوله لم تشرع الا على قدر الحاجة التى دعت اليها ، والأقضية والحوادث التى اقتضتها . ولم تشرع منها أحكام لحل مسائل فرضية أو الفصل فى خصومات محتملة . ويتجلى أيضا مما ورد فى القرآن والسنة من النهى عن الاكثار

من الأسئلة التى تقتضى تشريعا ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم » . ونهى رسول الله عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال فقال : « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة » ، وقال عليه السلام : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » (١) ويمضى الشيخ خلاف قائلا : والحكمة فى هذا أن التشريع انما هو لدفع حاجات الناس وتحقيق مصالحهم ، فينبغى فى كل عصر على تشريع ما اقتضته حاجاته وتحقيق مصالحه ، حتى لا يجد اللاحقون من تشريع السابقين عقبات تحول دون تشريع ما يدفع حاجاتهم ويحقق مصالحهم » .

ثم يلى المصدر الأول فى الأهمية المصدر الثانى وهو السنة . ثم يأتى الاجماع بعد ذلك ، ويشترط فى علمائه أن يكونوا معروفين بالصلاح والتقوى والجرأة فى الحق . وهو لون من ألوان الشورى وتبادل الآراء ، قريب الشبه بالحياة الديموقراطية الحديثة .

---

(١) انظر كتاب : علم الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى » لعبد الوهاب خلاف ص ٢٤ .

ورابع هذه المصادر القياس ، ويراعى فيه أن يكون متفقا مع روح الاسلام ، متمشيا مع ما ينشده من اصلاح ورقى للانسان .

ولا مشاحة فى أن المصدرين الأخيرين «الاجماع والقياس» فيهما ميدان فسيح لوضع تشريعات تساير التطور البشرى والرقى الانسانى فى جميع العصور والبقاع .

وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته الى الاجتهاد والرأى فيما لم ينزل فيه حكم صريح فى كتاب الله أو سنة رسوله. فقد روى البغوى عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن قال له : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : نبسنة رسوله ، قال : فان لم تجد فى سنة رسوله ؟ قال : أجتهد رأيى لا ألو . فضرب رسول الله على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله (١) .

وقد أوصى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبا موسى الأشعرى لما ولاه قضاء الكوفة وصية طويلة قيمة يقول له فيها : ولا يسنعنك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » ثم يقول له : الفهم الفهم فيما تلجلج

(١) السيوطى : الاتقان ١١٧/٢ .

في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور بنظائرها .. الخ » [1] .

ولرب قائل يقول : ان هـــذه التشريعـــات تتصل بالأمور الدنيوية ليس غير . ولكن الرد على ذلك يسير ، فان أمور الدنيا والدين فى الاسلام ملتحمة ، يكمل بعضها بعضا . فالدين وسيلة لاصلاح المجتمع الدنيوى ، كما أن أعمال المرء فى دنياه هى التى تقرر مصيره فى الآخرة . والعبادات كلهـــا وسائل لتحقيق غايات سامية هى لب الاسلام وجوهره وحقيقته ، مثل الصدق والوفاء والاخلاص والتواضع والحنان والتراحم والتكافل ويقظةالضمير وغير ذلك من الصفات الكريمة التى يستهدفها الاسلام .

٧

ولعل من أخص ما يمتاز به الدين الاسلامى أنه يدعو بقوة الى التفـــكير وطلب العلم ، وهما ــ لاشك ــ الأداتان اللتـــان تدفعان بالمجتمع البشرى الىالرقى والوقوع على كل جديد نافع . وذلك لأن القرآن كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، ومن ثم فهو يحث على التفكير ، وليس فيه حكم من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم . وهذا مكفول للمسلم فى كتابه ، كما لم يكفل قط فى كتـــاب من كتب الأديان الأخرى .. فهو يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح الى آيات

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١ .

خلقه وسيلة من وسائل الايمان بالله ، يقول تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار » . وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس كما يفكر فى عالم الطبيعة ، يقول الحق جل وعلا : «أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » . وهو يعظ المخالفين والمصدقين عظة واحدة ، هى التفكير الذى يغنى عن جميع العظات ، يقول تعالى : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» ، ويقول: « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ، ويقول : «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم ، يقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» ويقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . ولا يسأل المسلم ربه نعمة أجل وأقوم من العلم ، يقول الله : «وقل رب زدنى علما » . ويقول : « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

وربما كانت فضيلة الاسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم .

ومما تمتاز به الفرائض الاسلامية كذلك أنها تقصـد الى صلاح الفرد أو صلاح الجماعة .

فصلاة الجمعة واجبة على المسلمين مقدمة على البيع والشراء ومطالب المعاش « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

نعم انها لفسحة كريمة من الزمن تعلو فيها الجماعة عن صغائر الجشع وأطماع الدنيا ، وتخرج من ضيق هذه الشواغل الدنيوية الى غاية ارفع واسمى من هذه الغاية ، وتذكر ما ينفعها ذكره كلما استغرقها ذكر المنافع والغوايات ، وترى عظماءها وصغراءها معا فى ساحة واحدة بين يدى العظمة الالهية التى تطامن من كبرياء العظيم وترفع من نفسية الصغير .

واذا صلى المسلم منفردا فى سائر الصلوات الأخرى فهو فى انفراده يشعر فى أعماق نفسه بأن هنالك آصرة كبرى تجمع بينـه وبين سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى اتجاههم جميعا وجهة واحدة ، واستقبالهم معا قبلة واحدة ، ودعاؤهم بدعاء واحد ، وان تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم أن يقف بين يدى الله خمس مرات من مطلع الشمس الى زوال شفقها ليطهر نفسه من شوائب الدنيا ، وتمتزج

حياته بالعنصر الالهى ، ويحاول جهد طاقته ألا يأتى اثما أو يقترف ذنبا « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والزكاة مصحة للجماعة ، لأنها تقيم دعائم التعاون بين الأغنياء والمحرومين ، وتعالج مشكلة الفقر والحاجة علاجا يقوم على التعاطف والتكافل . فضلا عما فيها من ترويض للنفس على بذل جزء من المال العزيز عليها ، وتعويدها السماح بالبذل والايثار ؛ وشعورها بأنها مسئولة عن غيرها فيما أفاء الله عليها من رزق فى الحياة .

والحج مؤتمر عالمى يعقده المسلمون كل عام فى موعد معروف ، فيجتمعون فى صعيد واحد ويتعارفون ويتشاورون ، ويتذاكرون فى أمورهم ، ويفضى بعضهم الى بعض بما يعلمون من أحوالهم وما يشكون من متاعبهم ، ويستعيدون أمام أعينهم سالف سؤددهم وغابر مجدهم ، فلا يصبرون طويلا على حاضر دون ذلك الماضى العظيم .

أما الفرد فانه يغنم من حجه مغانم كثيرة ، اذ يعوده رياضة النفس على المشقة وينشطه بعد طول اللبث والجمام ، ويزوده بمعارف قيمة يكتسبها من السياحة ما كان يمكنه الحصول عليها بدونها ، وهى معارف تفتح البصائر والقلوب وتقشع عمى الأبصار وحجاب الأسماع ، يقول الله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

والصيام له مظهر اجتماعى ذو روعة وجمـال .. ولنتصور أسرة ضخمة عظيمة تتكون من مئـات الملايين تنتشر فى جوانب الأرض وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأوثق ما يتصل بالانسان فى معيشته اليومية ، وهو أمر الطعام والشراب ومتع الأجساد .. ملايين من الناس فى بقاع الأرض . يطعمون على نظـام واحد ، ويمسكون عن الطعام على نظـام واحد ، ويستقبلون ربهم على نظام واحد . وقلما انتظمت أسرة يعيش أفرادها بين جدران بيت واحد على مثل هذا النظام .

أما الفرد فانه يستفيد من الصيام خير ما يستفيده الانسان فى حياته الروحية وفى حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس وشحذ عزيمتها والتسلط عليهـا ، والشعور بوعثـاء الجوع والعطش ، فيتولد فى نفسه الشعور النبيل باطعام المحروم ومعاونة الفقير .

ومدار هذه الفرائض كلهـا على السماحة واليسر ، لا على العسروالارهاق ، يقول الله تعالى : «وماجعل عليكم فى الدين من حرج » ، ويقول جل شأنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، ويقول النبى الكريم « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » .

ومن ثم فليس هناك شعائر دينية خير من شـعائر الاسلام . فهى أصلح هذه الشعائر للفرد والجماعة دينا ودنيـا فى جميع العصور .

(٨)

هذه هى شعائر العبادة ، وهى ـ كما نرى ـ تنظم علاقة العبد بربه ، ففيها تهذيب للروح وتطهير للنفس ، كما أن فيها بالاقتضاء ما يفتح للانسانية آفاقا فسيحة من المؤاخاة والمساواة والتعاطف والتراحم ، مما هى فى مسيس الحاجة اليه فى كل حين.

أما مايتصل بعلاقة العبد بأخيه العبد ، من معاملات ورسم لقواعد المعاشرة والمخالطة والسلوك فى السلم والحرب فهى آية الآيات فى السمو والكمال والابداع مما يعجز أساطين الفكر والسياسة والاجتماع فى العصر الحديث عن الاتيان بمثله..وصدق الله العلى الكبير « مافرطنا فى الكتاب من شىء » .

فأين هؤلاء من قول الله تعالى فى مقابلة الاساءة بالاحسان وأثر ذلك : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . وقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وقوله فى ايثار العفو : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ، وقوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . وقوله فى أصول المؤاخاة : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . و لاتلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الايمان . ومن لم يتب فأولئك

هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » ، وقوله فى آداب الزيارة وما فيها من معان انسانية : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » . أو غير ذلك من الآيات الكثيرة التى لا يتسع المقام لذكرها ، وكلها تحث على الفضائل الانسانية والآداب الخلقية فى أسمى ذروتها .

ثم أين هم من قول نبينا الأمى العظيم فى سماحة النفس وأدب المقاضاة .. جاءه عليه الصلاة والسلام رجل يهودى يستأديه دينا له ، وجذبه جذبة شديدة ، فانتضى عمر سيفه وهم بقتل اليهودى ، فمنعه الرسول الكريم وقال له : ياعمر « ألا أدلك على شىء خير مما تفعل ؟ فقال عمر : بلى يارسول الله ، فقال النبى : مره بحسن المطالبة ، ومرنى بحسن الأداء ، رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » (١) .

وقوله فى ضبط النفس وكبح جماحها : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد من يصرع نفسه عند الغضب » .

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى ص ١٥٦ .

وقوله فى اعطاء كل ذى حق حقه : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

وقوله فى التراحم والتعاطف : « الراحمن يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقوله فى أدب الصحبة : « اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فان ذلك يحزنه » .

وقوله فى الحفاظ على الصداقة : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ،وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . وقوله فى الحث على العدل وتجنب الظلم الذى هو أس البلاء بين الحاكم والمحكوم « اتقوا الظلمفان الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وقوله : « اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وقوله فى آداب المجالس : « لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه . ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم».

وقوله فى الحث على التواضع : « ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظ المستكبر » أو .. أو .. الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى لايعيها حصر . وكلها ترسم للناس جميعا المثل الأعلى فى حياتهم وفى معاملاتهم وفى علاقاتهم بعضهم ببعض . وهى صالحة لهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم وأزمانهم .

ونحن نسوق هذه الأمثلة من كتاب الله ومن أحاديث نبيه لنبين أن تشريعات الاسلام المثلى ترسم للناس مجتمعا مثاليا ساميا كاملا فيه غميزة لغامز أو ثغرة لنافذ . وما أصدق ما قاله المفكر الانجليزى « أوليرى » فى كتابه « بلاد العرب قبل محمد » (١) : ان الانسان ليحار فى أمر هذا الرجل الأمى الذى وضع للعرب برسالته السامية مجتمعا عاليا قويا ترفرف عليه المؤاخاة والنظرة الصحيحة للحياة ، بعد أن كانوا همجا لايطمع أحد فى صلاح أمرهم ، لأنهم كانوا قبل الاسلام يضربون فى بيداء الجهالة والأحقاد والتمزق » ثم قال بعد كلام : « فأى مصلح اجتماعى فى عصرنا يستطيع أن يضيف الى هذا المجتمع الاسلامى شيئا يسد به نقصا يكفيه .

(٩)

وقبل أن أنتهى من مقالى أحب أن أقول ان هناك سؤالين يترددان فى نفسى أو أن أبسطهما أمامنا وألتمس لكل منهما جوابا على ضوء ما ذكرنا . وأظن أن المعنيين بدراسة التشريع الاسلامى والمواءمة بينه وبين مقتضيات العصر الحديث مهتمون بهما كل الاهتمام وهما :

O'Leary : Arabia before Muhammad P. 204.

الأول : هل التشريع الاسلامى يخضع لظروف الزمان والمكان ؟ أم أن ظروف الزمان والمكان هى التى تخضع للتشريع ؟

الثانى : هل الاسلام يقبل تغيير وسائله ومظاهره فى جيل بعد جيل ما دام فى ذلك حفظ لجوهره وتحقيق لغاياته ؟ أم أنه لا يقر تغيير هذه الوسائل وتلك المظاهر وان لم تعد صالحة لتحقيق غاياته والمحافظة على جوهره ؛ وجوابى عن السؤال الأول أن التشريع الاسلامى هو الذى يخضع للبيئة وظروف الزمان ، لأن المقصود من التشريع هو تحقيق مصالح الناس المشروعة واسعادهم وعدم تكليفهم ما يشق عليهم .

والمعروف أن مصالح الناس ونظراتهم الى الحياة وحكمهم عليها تختلف بالنسبة لهم باختلاف الزمان والمكان . والباحث فى التشريع الاسلامى من أول القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الرابع يجد أن أئمة المجتهدين والمشرعين راعوا طبيعة هذا الاختلاف وما يقتضيه ذلك من اخضاع التشريع الاسلامى لظروف الزمان . فالامام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنشأ مذهبين : احدهما قديم ، وقد أنشأه فى العراق ، والآخر جديد وقد أنشاه فى مصر . والمذهبان يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا بينا . ولم يأخذ عليه أحد أنه أخطأ أو ضل السبيل وانما عمل بما تقتضيه طبيعة الأشياء واختلافها بين أمة وأمة وبين زمان وزمان . ويقول المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف : من

الأمور التي روعيت في التشريع الاسلامي مسايرته مصالح الناس ، وبرهان هذا أن الشارع علل كثيرا من أحكامه بمصالح الناس ، ودل بشواهد عدة على أن المقصود من تشريع الأحكام تحقيق مصالح الناس . والأحكام تدور مع عللها وجودا وعدما ولهذا شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها لما اقتضت المصلحة تعديلها . فقد فرض الاتجاه في الصلاة الى بيت المقدس ثم نسخه وفرض الاتجاه الى الكعبة . وفرض عدة المتوفى عنها زوجها حولا ، ثم نسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام وحرم الدم على اطلاقه ، ثم عاد وحرم المسفوح منه فقط . والرسول نهى عن زيارة القبور ، ثم أباحها . فهذا النسخ وذلك التبديل في وقت التشريع برهان على أن التشريع الاسلامي ساير مصالح الناس مادام ذلك لا يهدم أصلا من أصول الدين ولا يجلب لأصحابه ضررا .. » (١)

ثم أجيب على السؤال الثاني فأقول : ان الاسلام يقبل من غير شك تغيير وسائله ومظاهره مادام يتأتى من هذا التغيير تحقيق لغاياته في سهولة ويسر وبأوسع طريقة وأدق معنى . فالفقر الذي عالجه الاسلام في الزمن الأول بالزكاة « بدعوة القادرين على الاحسان قبل أن تتسع أمور الحياة وتتعقد مسائلها الى هذا الحد الذي نراه ، وقبل أن تنهض هذه الحضارة المادية بما صاحبها من نواح شتى للانتاج بسبب انتشار العلم

(١) أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامي ص ٩٦ .

وكثرة الصناعات . أقول ان الفقر الذى عالجه الاسلام بالوسيلة الأولى لم تعد هذه الوسيلة مجدية فى علاجه ولا تؤدى الى الهدف الذى ينشده الاسلام ، وهو خلق مجتمع غنى قوى متكامل . هذا الى أن هؤلاء الذين كان لهم حق معلوم فى الزكاة لم يعد لهم وجود الآن . فالدولة هى التى تتكفل بتحقيق الغاية من مشروعية الزكاة ، وهى محاربة الفقر بوسائلها المشروعة وهى المسئولة عن الفرد بجعله مواطنا صالحا نافعا فتخلق له العمل ان كان عاطلا ، وتعنى به اذا ادركته الشيخوخة ، أو أقعده المرض عن العمل ، وتبذل أقصى جهدها فى سبيل تعليمه وتثقيفه حتى يفيد وطنه وأمته ويعرف مكانه فى المجتمع . ولها أن تفرض فى سبيل ذلك من الضرائب ما تشاء . والعبرة و لمعول عليه فى الاسلام هو تحقيق الغاية وليس المحافظة على الوسائل

ومن استقرأ أحكام الخلفاء الراشدين ومن سار على سنتهم تبين أنهم وضعوا فى اعتبارهم الأول صالح الناس والدولة . فأبو بكر استخلف عمر ، وجمع صحف القرآن التى كانت متفرقة وحارب ما نعى الزكاة . وعمر لم يستخلف أحدا وترك أمر المسلمين شورى ، وأمضى الطلقات الثلاث بلفظ واحد ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم وعطل حد السرقة فى عام المجاعة ووضع الخراج ودون الدواوين . وعثمان جدد أذانا ثانيا يوم الجمعة وجمع المسلمين على مصحف واحد وأحرق ما يخالفه وورث من طلق زوجته فى مرض موته هربا من أن ترثه .

ومستند كل منهم فيما صدر عنه مطلق المصلحة ليس غيره

بساطة العقيدة الإسلامية

لقد دعا الرسول العربى الكريم عبدة الأصنام وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين الى أصفى عقيدة توحيدية ، هى الايمان بأن لا اله الا الله ، وبأن محمدا رسول الله . وارتضى عليه السلام أن يخوض صراعا مكشوفا مع بعض نزعات البشر الرجعية التى تقود المرء الى أن يشرك بالخالق جل وعلا آلهة أخرى « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد . ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

ولم يلجأ الرسول ـ لكى يقود الناس الى الايمان باله واحد ـ الى استهوائهم بروايات عن أحداث تنحرف عن سبيل الطبيعة السوى ، تلك الأحداث التى تسمى معجزات . ولم يكرههم على اصطناع الايمان والتزام السكينة ببعض التهديدات السماوية التى لا تؤدى الا الى تعطيل قدرة الانسان على التفكير .

بل انه ـ عليه السلام ـ دعاهم ببساطة ومن غير أن يحملهم على الابتعاد عن عالم الحقيقة ، الى التفكير فى الكون وسننه .

ولما كان واثقا بأن كل عاقل سوى الفكر لابد أن يؤمن آخر الأمر بالاله الواحد الواجب الوجود . فقد اكتفى بدعوة الناس الى آن يقرأوا كتاب الحياة . وقد أشار الأمام محمد عبده الى أن الرسول العظيم كان يكتفى بمخاطبة ضمير الفرد ذاته (١) .
انظر اليه يتلو عليهم قول الله تعالى من سورة البقرة : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم . ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهـار ، والفلك التى تجـرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

والقرآن الكريم يدعو الناس فى مواطن كثيرة الى التأمل فى البراهين القوية الحاسمة التى تقدمها الطبيعة والتى تـدل على كمال قدرته وتمام عظمته . وأنا آجتزىء هنا بذكر بعض الآيات من سورة الرحـمن : « والأرض وضـعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغـربين ، فبـأى آلاء ربكما تكذبان . مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان

(١) رسالة التوحيد ص ١٩٥ .

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان »

وقد اندثرت الوثنية بفضل الاسلام ، ولم يقو دين آخر على أن يقهرها تماما . وبفضل الاسلام تحرر مفهوم الكون وشعائر الدين وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع المسوخ التى كانت تحط من قدرها ، وتحررت العقول الانسانية من الهوى ، وأدرك الانسان آخر الأمر مكانته الرفيعة « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ولم يذل الانسان نفسه الا أمام الخالق رب العالمين ، وتعين عليه فى الواقع أن يقول مع الرسول الكريم : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت » .

وقد أطلق الاسلام ارادة الانسان من القيود التى طالما أبقته موثقا الى ارادة أناس آخرين ، أو الى ارادة قوى أخرى يدعونها خفية . فقد سقط الكهان ، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون ، وجميع هؤلاء الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والانسان . أقول لقد سقط هؤلاء عن عروشهم ، وغدا الانسان خادم الله وحده ، ولم تعد تشده الى الآخرين من الناس غير التزامات الانسان الحر نحو الانسان الحر .

وبينما قاسى الناس فيما مضى مظالم الفروق الاجتماعية أعلن الاسلام المساواة بين البشر وجعل التفضل بين المسلمين على

أساس التقوى والاعتصام بحبل الدين « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » لا على أساس المحتد والجاه والمال والسلطان . يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

ولقد أزال الاسلام السرية التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة ، مؤنبا أولئك الذين لا يحسنون غير تلاوة كلمات الكتاب ،ومشبها أولئك الذين يزعمون أنهم يحتفظون بالتوراة بالحمار الذي يحمل أسفارا .

وقد ركز الاسلام دعوته الأولى في وجوب الاعتراف بوجود اله واحد في جوهره وفي صفاته وفي أفعاله ، وهو ذو قدرة كلية كاملة ، وهو سيد الكون وسيد يوم الحساب ، ويجب أن يعتمد عليه كل مخلوق ، ويؤمن به ايمانا كاملا لا يعتوره وهن .

والآيات القرآنية التي نزلت في فجر الدعوة الاسلامية كانت تتناول موضوعات الموت والبعث والخلود والحساب وما اليها . وقد أنذر الله أولئك الذين لا يتوبون اليه ولا يسلمون اليه أمرهم بالعقاب الرهيب ، فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . والويل كل الويل لأولئك الذين يجرءون على مخالفة الأنبياء المرسلين انيهم . ان الله سوف يستأصلهم ويقطع دابرهم . وهو الذي يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ، ويسمع كل شيء . انه خالق السماء والأرض ،والحياة

والموت ، انه رب العرش العظيم ، وان ارادته لمطلقة ، وقوته لا سبيل الى مقاومتها . وكل هذه الصفات تتجلى فيما صنع ان كل شيء فقير اليه ، أما هو فغنى عما أبدع ، وهو لا يشبه أيا من مخلوقاته . والصلة الوحيدة التى تجمعه بها هى أنه خلقها، وهى له واليه مرجعها .

ولكن هذا الاله القوى الجبار هو أيضا اله عادل ، وهو لن يضيع أجر من آحسن عملا ، ولا يظلم أحدا من عبادهفتيلا .

وكثيرا ما بحث لاهوتيو المسيحية ورجال الدين الاسلامى مسألة الارادة الانسانية . وهل الانسان حر في ارادته آو غير حر فيها . وقد اختلفوا فى ذلك طرائق قددا . ولكنهم جميعا كانوا لا ينكرون البدهية السالفة القائلة بالعدل الالهى . كما كان المسلمون الأوائل لا ينكرون أن أعمال الانسان ، صالحها وطالحها ، هى ثمرة حريته الكاملة . وقد استخلصوا ذلك من الآيات الواردة فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرىء بما كسب رهين » . وقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . وقوله جل وعلا : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون» ، وقوله: « ليجزى الله كل نفس ماكسبت ان الله سريع الحساب » ، وقوله تبارك وتعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم » . وغير ذلك من الآيات الكريمة التى تدل فى صراحة

على أن الانسـان يأتى من الأفعال ما يأتى بمحض اختيـاره ، ولذا فهو مسئول عما يفعل . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فضمير الانسان نفسه هـو الذى يحمل مسـئولية أعماله . والله تعالى لا يوصد سبيله فى وجه أحد من عباده . حتى الآثمين منهم ، فمن تاب وآمن وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا . وهو يضفى على كل امرىء القدرة على القيام بالعمل الصالح . والانسان فى علاقته بالله يمـكن تشبيهه بالمسافر الذى يرتكب خطأ فى الصحراء حين يبحث عن الطريق التى تقوده الى غايته التى اليها يقصد . فأما الذى يستحق بفضل ايمانه وعمله الصالح رحمة الله وعطفه فسوف يجزيه الله بالهداية ، فى حين أنه يتخلى عن ذلك الذى لا ينصرف الى العمل ويتركه وشـأنه ، ولا يمد يده اليه ، ولكنه فى الوقت نفسه لن يكون هو الذى يدفع به الى طريق الشر .

هذا الاله القادر على كل شىء ، الشديد العقاب للعاصين ، هو أيضـا الرحيم ، الحافظ لعباده . هادى الاثم الى سـواء السبيل ، غافر الذنب وقابل التوب ، مستجيب الدعوات ، مغدق لنعمة ، لأن الخير كله بيده .

ورحمة الله تكاد تكون أكثر الصـفات ورودا فى القـرآن لكريم . وكل سورة فى القرآن تستهل بهاتين الصفتين الكريستين: لرحمن والرحيم ، لأن رحمته فى الواقع وسعت كل شىء ، ولأنه

هو نفسه قد أمر بأن تكون الرحمة قانونا لايصح خرقه . وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : ان رحمتى تغلب غضبى (١) »، ويقول عليه السلام : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه (٢) » .

ومن بين الصفات الالهية نجد صفة الحب ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » . ويقول الله تعالى فى حديث قدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . وماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه . ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . ورجله الذى يمشى بها . ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه (٣) » .

ولرب قائل يقول : ان هذا الذى جاء به الاسلام ليس أصيلا ، وانه يشبه المفهومين اليهودى والنصرانى الى حد بعيد. ولكن ما أيسر الرد على ذلك ، فلم يزعم النبى عليه الصلاة

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى الدرداء .
(٢) رواه ابن حنبل فى مسنده عن عبد الله بن عمر .
(٣) رواه الترمذى عن ابن عباس .

والسلام أنه جاء بشيء جديد ، ولكنه أعلن في جلاء أن اللهأرسله ليعيد ملة ابراهيم — التي حرفت من بعده — الىأصلها ، وليؤكد ما كان الله قد أوحى به الى أنبيائه السابقين ، وأنه آخر الأنبياء والرسل حملة التشريع عليهم السلام .

لقد جاء الاسلام في زمن كان الناس منقسمين فيه الى فرق دينية والى معتقدات متباينة ، وكانوا يتقاتلون ويلعن بعضهم بعضا ، وكانت كل فرقة ترى ، بل تعتقد أنها المستأمنة وحدها على كلمة الله ، في زمن كان القتال والتعصب معتبرين فيه جزءا ضروريا من الحياة الدينية .

جاء الاسلام وأعلن أن الدين كان في جميع العصور ، وعلى أفواه الأنبياء جميعا ، دينا واحدا ، وأنه في جوهره كان يدعو الى التعاليم نفسها .. فهو يدعو الى الايمان بوحدانية الله ، وبالخضوع لارادته ، وبالعمل بأوامره ، وبالأخذ بأسباب الخير واجتناب الشر . وفوق هذا أصر الاسلام على أن مختلف الأشكال والطقوس التي قدمتها الأديان المتباينة انبثقت كلها من رحمة الله الذي أتى كل قوم في كل وقت بعينه دينا يلائم حاجاتهم ويساعد على التطور مع تقدم العقل الانساني . ولكنه أصر على أنه — عندما نضج الجنس البشري آخر الأمر وأصبح ، بفضل الأحداث ، مستعدا لفهم رسالة دينية لاتخاطب عواطفه فحسب ، بل تخاطب عقله أيضا . ظهر محمد صلى الله عليه وسلم ليوفق بين هذه التعاليم كلها لصالح الانسانية :

وليسوى الخلافات بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وليقود الناس نحو تحقيق السعادة فى الحياتين الدنيا والآخرة على السواء .

والمسلمون جميعا متفقون على أن الايمان بالله يأتى من الايمان بالأنبياء ولم يكن فى ميسورنا أن نؤمن بالأنبياء أو بآيات كتاب منزل لو لم يسبق هذا الإيمان ثقة النفس الانسانية بوجود الله وبارساله الأنبياء لحمل هدايته الى الناس .

ومن هنا فان أول واجبات الانسان أن يتدبر ظواهر الطبيعة وأن يتأمل فيها لكى ينتهى الى الايقان بوجود الله . ومن هذا المبدأ الرئيسى ينطلق الايمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة .

ان معجزة الاسلام الكبرى هى القرآن ، وهو كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل هو تنزيل من حكيم حميد . وقد تحدى النبى العرب أن يأتوا بسورة ، بل بآية من مثله ، فلم يستطيعوا ، ووقفوا مبهورين أمام محكم آياته . ثم أيقنوا فى قرارة أنفسهم أن هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون من عمل محمد وهو العربى الأمى الذى لم يكن قبل ذلك يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ، ولكن فريقا منهم كان يكابر ويماكس وهو يعلم أنه فى ضلال مبين . ولم يروا بدا أمام عجزهم التام — وهم أساطين البلاغة وأرباب اللسن والبيان — عن الاتيان بمثله ، من أن يمتشقوا الحسام ويقاتلوا النبى ، محاولين أن يقضوا على الدعوة السامية وعلى صاحبها .

ونحن نقرأ فى هــذا الكتاب العظيم ــ الى جانب اعجازه التام ــ تنبؤا ببعض أحداث المستقبل ، ووصفا لوقائع حدثت منذ قرون ولكنها كانت مجهولة على وجه العموم . وفيه كذلك اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة والى علوم مختلفة دينيــة ودنيوية . وكلما سار العلم قدما فى مدارج الرقى والتقدم وقع العلماء على الكثير من الأسرار القرآنية .

ولعل من أخص خصائص القرآن أن نصه ظل صــافيا لم تسسه يد التحريف عبر هذه القرون الطوال التى تراخت ما بين تنزيله ويومنا هذا ، بخلاف بعض الكتب السماوية التى عبثت فيها يد التبديل والتحريف . وسوف يظل نص القرآن على حاله تلك من الصفاء والســلامة باذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفى كتاب المسلمين خصيصة أخرى واضحة وهى أنه يتلى كل يوم ، بل كل ساعة فى طول العالم الاسلامى وعرضه ولايقع فى القارىء أو السامع ذرة من الملل ، بل على العكس ان المؤمنين يزدادون حبا له واقبالا عليه كلما أكثروا من تلاوته يوما بعــد يوم . ولعلنا نحس أنه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى اليــه الشعور العميق بالمهابة والخشية .

على أن المرء لايجد عسرا أو مشقة فى استظهاره ، حتى اننا لنجد اليوم آلافا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفى الجمهورية العربية وحدها عدد من حفاظ القرآن أكثر من عدد حفظة الأناجيل فى أوربا كلها .

ان انتشار الاســلام السريع لم يتم عن طريق القوة ، ولا بجهود المبشرين الموصولة ، ولكنه تم لأصالته واستقامة مبادئه ومواءمتها للعقل المستقيم والفطرة السليمة . هذا الى أنه دين واقعى لايحرم معتنقيه الطيبات التى أحلها الله . يضاف الى ذلك أمر هام جدا هو أن الاسلام دين يتسم بالبساطة فى جوهره وفى مظهره .. فهو دين يسر لا عسر ، وقد جاء فى الأثر : ما خير النبى بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما » ، وقال الرسول الكريم : « يسروا ولا تعسروا » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبــه » . وهو دين ليس فيه تزمت ولا تحرج ولا طبقيــة ولا استعلاء .. وفى ذلك يقول الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم . ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » . ولعل من أبرز مظاهر بساطته أنه دين لايشغل معتنقه عن دنياه ، بل انه يأمره بأن يأخذ نصيبه من الدنيــا وهو يعمل للآخرة .. يقول الله تعــالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيــا » ، ويقول النبى صلى الله عليــه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ومن بساطة الاسلام أنه دين ليس فيه رهبانية ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لارهبانية فى الاســلام » ، وهو بذلك لايجافى ناموس الطبيعة البشرية .

وللاسلام عقيدتان أساسيتان أشرنا اليهما فى ثنايا المقـال هما : وحدانية الله ورسالة محمد . وحول هاتين العقيدتين عقائد أخرى تنبثق منهما ، استقرت فى نفوس المسلمين بعد قرون من الدراسة والمناقشة ليس من طبيعتهـا بأية حال من الأحوال أن تعوق العلم الحديث أو تعارض الحقائق الفلسفية .

ذلك أن الاسلام لايضع أى حد أمام قوى العقل البشرى ، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذى تريد .. ففيمـا يتصل بخلق الكون وأصله يقول الله تعالى : « أو لم ير الذين كفـروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون » . وفيما يتصل بالنواميس الطبيعيـة يقتصر القرآن على النص على أن قد سن بعض النواميس التى تسير الخليقة والتى لا تتغير .

وبينما نجد جميع الأديان الأخرى تقدم الى أبنائها حمـلا ثقيلا من العقائد التى تثقل كواهلهم وتنوء بها أفهامهم — نرى الاسلام ذا سهولة وبساطة نقيـة كالبلور .. مما كان سـببا فى انتشاره السريع ابان الفتوح الأولى بين أناس غرقوا فى اضطراب روحى عميق بسبب الغموض الذى كان يكتنف بعض معتقداتهم الدينية . وهذه السهولة البالغة وتلك البساطة المتناهية اللتـان يتصف بهما الاسلام هما السبب أيضا فى انتشاره الموصول اليوم بين الشعوب غير المتحضرة فى آسيا وافريقية ، لأن الاسلام قادر على النفاذ الى أعماق نفوسهم من غير ما لجوء الى شروح مطولة أو عظات معقدة .

الإسلام دين السعي والعمل

يتهم الشانئون والمربصون بالاسـلام ديننا العظيم القوى بأنه يحبب الناس الى الزهد ، ويحمل على الدنيا ومتاعها ، ويعيب السعى فيهـا والتكاثر منها . وهو فى نظـرهم ـ قاتلهم الله ـ لايصلح أن يكون دين هذا العصر الحديث الذى خطت فيه المدنية خطوات حثيثة ، ولم تسعها رحاب الأرض فيممت بأبصارها شطر السماء .

وهم بذلك يجهلون كل الجهل رسالة الاسلام السامية ، فقد جاء بتعاليمه السمحةليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم سواء السبيل ، فصحح العقائد ، وقوم الأخلاق ، وأصلح العادات، ونظم أصول الحكم ، ورسم الخطـة لبناء المجتمع السليم الذى تتكافأ فيه الفرص وتتضافر الجهود لخير الجميع ، فامتد سلطانه فى الشرق والغرب ، وانتشر أتبـاعه فى كل مكان يحملون مشعل هدايته الى بقاع الأرض .. يبنون ويعمرون ، ويعلمون ويؤدبون فى حركة دائبة وسعى متواصل ونشاط منقطع النظير .. شعارهم فى ذلك اصـلاح الدين والدنيا ، والتوفيق بين مطـالب الروح ومطالب الجسد ، والأخذ بيـد الناس الى ما يريد لهم الاسـلام

من خير وسعادة وفلاح ، فكان من أثر ذلك تلك النهضة المثالية الخالدة التى لم تر البشرية لها مثيلا فى التاريخ .

كان هذا شأن المسلمين فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعمه فى ضلالات الجهـالة وتتردى فى مهاوى التخلف والتهـافت .. مجتمعـات مفككة متنافرة تتحكم فيهـا الأهواء ، وتتسلط على عقولها الأوهام والأباطيل ، ويسومها الخسف وسوء الهوان حكام دكتاتوريون عاشوا لأنفسهم ولرغائبهم ليس غيـر ، فاستعبدوا الناس ، وأماتوا فيهم مثل الخير .

ولم تقف السلطة الروحية فى تلك العصور (العصور الوسطى) ضد هذه الأوضاع الظالمة ، بل زوت الناس عن الدنيـا وحرمت عليهم كل نشاط يرمى الى تعميرها والنهوض بها ، وأعلنت فيهم أن الغنى لايدخل ملكوت السموات . فحبست النـاس فى سجن مظلم من الأفكار الخاطئة والتعـاليم الجائرة ، واعتبرت كل من يتذمر على هذا الوضع ويفكر فى الانطـلاق الى بحبوحة الحرية الواسـعة فى الفكر والعمل والسعى والـكفاح ــ اعتبرته آثما زنديقا ، جزاؤه الحرمان من ثواب الآخرة كما يدعون .

ولم تتحرر عقولهم من ربقـة هـذا التحكم وذلك الاذلال الا بعد أن اتصلوا بالمسلمين فى الأندلس . ورأوا ما يتمتعون به من طيبات الحياة الدنيا مع اعتصامهم بحبل الدين والحفاظ على مبادئه السامية ، عاملين بقول الله تعالى فى محكم آياته : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وقـد بهرتهم تلك الحضارة الاسـلامية التى شملت جميع النواحى الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية .

يضاف الى ذلك مالمسوه ابان الحملة الصليبية على البـلاد الاسلامية من مظاهر النهضة فى تلك البلاد . وعوامل القوةالتى يسرت لها أن تكون صاحبة السلطان والحول والطول طوال فترة كبيرة من التاريخ .

وعلى أثر هـذا كانت نهضة الغرب الذى تحرر من قيوده ، وتخلص من أوهامه ، وخرج من عزلته ، وانطلق فى نهم الى الحياة يضرب فى كل مكان ويغزو كل ميدان ، فكانت حركة الاصـلاح الدينى والكشوف الجغرافيـة والمخترعات . وكان الانتقـام من السلطة الروحية التى تحكمت فى عقولهم وطاقاتهم آمادا طويلة . فانزوت فى دائرة ضيقة بعيدة عن رحاب السلطة الزمنية الواسعة.

وجاء الغرب بعد ذلك بقوته وعتاده وأفكاره ليثأر من الشرق الذى علمه وألهمه ، فتنـافست دوله فى تمزيق أوصـال الأمة الاسلامية ووضعت أيديها على أراضيها التى تزخر بأنواع الخير والثروة والنعيم .

وظل المسلمون ردحا مـن الزمان يتحكم فيهـم الأجانب ويستنزفون ثرواتهم . ضاربين حولهم سياجا كثيفا . حتى لاتمتد أنظارهم الى ضوء الاصلاح والجد والعمل .

وفى غمرة هـذا البؤس وهت صلة المسلمين بدينهم ، وخيم الجهل على عقولهم ، ورانت على أحـلامهم مبادىء لا تمت الى الدين بصلة ولا تتفق والمنطق السليم .

وقد تولى كبر ذلك بعض الجهال الذين اندسوا بين العامة يحببون اليهم الرضا بالدون من العيش ، ويزينون لهم القنـاعة والزهد والاستسلام والتواكل فكان ذلك سببا فى أن طـال أمد الاستعمار ، وفى تثبيت أقدام المستعمرين الطغاة الذين نزحوا الى بلاد المسلمين ، فملكوا زمام الثروة فيها واستغلوا كل ما فيهامن مواد أولية ، يصنعونها ثم يبيعونها لنا بأثمان باهظة ، مكافأة لنا على قناعتنا بفتات المائدة ورضانا بهذا الوضع الذليل .

وقد فطنت الشعوب الشرقية والاسلامية أخيرا الى هـذه الحقيقة فقاموا بهذه الانتفاضات الثائرة التى حطموا بهـا القيود وكسروا الأغلال واستردوا حقوقهم المسلوبة . وبدت بها بسـائر نهضة جديدة شاملة لجميع النواحى ، استعدادا لاستقبال عهـد جديد مشرق . ترفرف عليه أعلام الحرية . وبشيع بين جنبـاته الرخاء .

وقد كان هم المستعمرين الأكبر أن يخدروا أعصاب المسلمين ويملحوهم بصفات مغرية يطرب لها الجهلاء . وهى فى حقيقتهـا سخرية واستهزاء . والدين براء منها .. كأن يصفوهم بأنهم قوم قانعون ، يرضون بالقليل . ويحمدون الله عليه ؛ لاتهمهم الدنيا ،

ولا يحرصون على المادة ، يعنون بالروح كل العناية ، وينصرفون الى العبادة ، وينفقون معظم أوقاتهم فى لزوم المساجد .

وكانت هذه الكلمات تفعل فى نفوس السذج والبسطاء فعل السحر ، فيركنون الى الكسل ، ويحرصون على أن يكونوا فى هذه المعانى موضع اعجاب المستعمرين ، ويتركون الدنياوخيراتها نهبا لهؤلاء الذئاب من الأفاقين الذين وفدوا على البلاد مشردين جائعين .. فاذا بهذه الجاليات بعـد قليل من الزمن تملك الثروة والجاه والسلطان . ولا تكتفى بذلك ، بل تنشىء المواخير وأماكن الفجور بغية اماتة الشعور الوطنى وافساد أخلاق الشباب وصرفه عن التفكير فى مصيره .

وقـد ساعد على ذلك جهل النـاس بالدين فى ذلك الزمان وسوء فهمهم لمبادئه وأهدافه .

وفى غمرة هذا الجهل سـادت بينهم فكرة لاتمت الى الدين بصلة ، وهى فكرة التوكل على الله بمعنى غير معنـاه الصحيح ، ناسين قول النبى الكريم لصاحب الناقة حين سأله : أأعقل ناقتى يا رسول الله أم أتوكل على الله ؟ فقال الرسول : اعقلها وتوكل على الله .

وكانوا يبررون معتقدهم هـذا بفهم خاطىء لنصوص من القرآن والحديث تبدو فى ظاهرها للجاهل كأنها تدعو الى هذا التوكل الكاذب ، من مثل قوله : « وما من دابة فى الأرض الا على

الله رزقها » وقوله تعالى : « وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو لرزاق ذو القوة المتين » . وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » ، وقوله عليه السلام : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » .

وتستهويهم آيات الزهد ، وأحاديث ذم الدنيا ، والشعر الذى يدور حول هذا الغرض ويحمل ذلك الطابع ، والذى أجاد حفظه وانشاده المتسولون والمتواكلون .

وكانت الخطب المنبرية التى وضعت فى ذلك العهد المظلم صورة معبرة تنعكس على مرآتها أفكار المسلمين فى فترة الضعف والجهل ، وتصور الاتجاه العام والمصير الذى استولى على جانب كبير من أفكارهم .

فهم المسلمون آنذاك هذا الفهم الخاطىء للدين . ونسوا التفسير الصحيح لهذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وعزب عنهم المراد السامى منها ، ومالت نفوسهم الى تلمس الأدلة المبتورة والمعانى السطحية التى توافق مزاعمهم الباطلة .

ثم أذن الله للمسلمين أن تنجاب عن أبصارهم هذه الغشاوة. وأن يفهموا الى حد كبير مبادىء دينهم العظيم ، فهبوا من سباتهم يستنقذون أوطانهم من أيدى المستعمرين الطغام ، مستهدين

بهدى الاسلام الذى يأبى للمسلم أن يستذله غيره كائنا من كان « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، والذى يفرض عليه الجهاد لحماية الوطن وتخليص الحقوق من الغاصبين واشاعة السلام بين الناس وتأمين حرياتهم . وآيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام فى هذا المعنى كثيرة ، وكلها تطلب الى المسلم أن يقف فى جميع الظروف عزيزا شامخا ، لا يستكين ، بل يسعى ما وسعه السعى لكى يستخلص حقوقه ، ولو بذل فى سبيل ذلك حياته . ويعجبنى فى هذا المقام ماذكره ابن هشام فى السيرة النبوية من أن النبى عليه الصلاة والسلام أراد أن يدفع عن أهل المدينة خطر الأحزاب فى غزوة الخندق باعطائهم ثلث تمر المدينة على أن يرجعوا ولما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فى ذلك قالا له : هل هذا أمر من الله أم رأى رأيته ، فقال : بل رأى رأيته لأكسر عنكم شوكتهم، وقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، قدكنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى « أى ضيافة » أو بيعا . أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ؛ لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » (١) .

هذا موقف من مواقف المسلمين ينم على العزه ، والأنفه ؛ عدم التخاذل والاستكانة . وبذل النفس والنفيس لحماية الوطن بما يكلفهم ذلك .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٠١ طبعة اوربا .

وان من يتدبر تعاليم الاسلام يدرك فى غير عسر أنه دين ودنيا ، وقد أفصح النبى الكريم عن ذلك فقال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

والله تعالى يأمرنا بالعمل والسعى فى الأرض طلبا للرزق الحلال ، يقول جل شأنه : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ، ويقول سبحانه : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » ، ويقول جل وعلا : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، ويقول تبارك وتعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله » .

ونفيد هذه الآيات أن فى جميع جنبات الأرض متسعا للعباد، وأن الرزق موجود فى كل مكان ، فى السموات وفى الأرض ، فى البر وفى البحر ، وأن الله جعل كل شىء مسخرا لخدمتك ، ولم يقصر نشاطك على ميدان خاص ، ولم يحبسك فى دائرة ضيقة لاتسع طموحك وآمالك وفكرك وكفاحك . وهو لا يرضى لك القصور والعجز ، ولا يحب منك أن تكون قادرا على الكمال ثم تحجم وتقعد ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز » .

هذا هو الميدان الواسع الذى جعله لك فسرح لنفسك فاضرب فى جنبات الأرض ، وجر بقوتك وفكرك وجميع طاقاتك

فى هذه الرحاب الواسعة وافهم حكمة الله فى اطلاقه حين أمرك بالعمل حيث يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وقد وردت آيات عبر فيها القرآن عن العمل بصيغة التنكير، مما يدل على عمومه واطلاقه كقوله تعالى:« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض»

كما وردت آيات لم يحدد فيها نوع العمل ، ولم يبين مجاله، ولم يوصف الا بأنه « صالح » وكفى ، كقوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .والعمل الصالح هو ما استحسنته العقول السليمة ووافقت عليه الشريعة فمجال العمل واسع وميادينه متعددة .. ألا فليعمل العاملون .

وليس المراد بالعمل — كما ترى — نوعا معينا ، ولا ناحية خاصة منه ، بل المراد به كل نشاط فكرى أو بدنى ، زراعى أو صناعى أو تجارى ، أو ماشاكل ذلك من كل ماتحتاج اليه المجموعة البشرية . على شريطة أن يكون هذا النشاط مشروعا ، يقصد منه الخير للفرد والمجتمع ، ويسير فى الطريق الذى رسمه الدين .

والاسلام يريد من المسلم أن يكون عضوا عاملا فى الجماعة الانسانية . ويحتم عليه أن يكون فى حياته ايجابيا ، يندمج فى البيئة ليفيد ويستفيد ، ويكره السلبية المتخاذلة والانكماش

والانزواء عن معترك الحياة .. والنصوص فى ذلك كثيرة فى كتاب الله وأحاديث الرسول وأقوال كثير من الصحابة .

والله تعالى لايرضيه من العبد أن ينقطع للعبادة والتبتل ، فلا رهبانية فى الاسلام ، بل أمره أن ينتشر فى الأرض لطلب الرزق اذا فرغ من صلاته. يقول جل شأنه : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . وذهب جماعة الى الرسول الكريم وقالوا له : يارسول الله ، ان فلانا يقوم الليل تهجدا والنهار تعبدا ، فقال عليه السلام : ومن يكفيه أمره ؟ فقالوا : أينا يكفيه أمره ؛ فقال : « أيكم خير منه » .

ويأمر الله تعالى نبيه بأن يجد فى تحصيل عيشه بعد أن يفرغ من العبادة فيقول : « فاذا فرغت فانصب » أى اتعب واكدح فى سبيل الرزق . وكان فى قدرة الله أن يحوطه بمطارف النعمة والعيش الرغيد ، ولكنه جعل رسوله ـ عليه السلام ـ أسوة حسنة لأمته .

ويقول نبى الاسلام : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده . وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » . ويقول عليه السلام : « على كل مسلم صدقة ، فقيل له : أرأيت ن لم يجد ؟ فقال : يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » . ويذكر لنا أن الله سيحاسب الانسان على صحته وعمره وماله وعلمه . كيف استغل ذلك فى حياته ، فيقول : لاتزول قدما عبد حتى يسأل

عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ » .

ويدعو الرسول المسلمين الى العمل بالتجارة ويحببها اليهم فيقول : «تسعة أعشار الرزق فى التجارة » . كما يبين للصحابة أن رزقه ليس أمرا مفروضا على الناس يأتيه وهو قاعد مستريح . بل ان رزقه هو نتيجة كفاحه وسعيه وجهاده ، فيقول : « جعل الله رزقى تحت ظل رمحى » . ويروى أنه رأى رجلا قد ورمت يده من كثرة العمل فقال : «هذه يد يحبها الله ورسوله » .

ويتضح اهتمام النبى بالعمل كضريبة لابد أن يؤديها الفرد للجماعة فى أنه كان على سفر مع بعض الصحابة فأدركهم الجوع ، فأسهم كل فرد بنوع من العمل فى تهيئة الشاة للأكل . ولم يشأ ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يجلس دون أن يشاركهم فى ذلك ، فتعهد بجمع الحطب لانضاج الطعام .

أفبعد هذا دليل على نظرة الإسلام الى قيمة العمل وأثره فى خير الأمة ؟ ويرى النبى الكريم أن العمل يحفظ ماء الوجه من أن يراق فى ذل السؤال فيقول : لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ويبين أن الشرف والمروءة تأبيان على المسلم ــ ودينه دين عزة ــ أن يكون فى وضع أدنى من غيره ، مادام يستطيع أن يعلو

بقدره ، فيقول : اليد العليا خير من اليد السفلى »أى المعطى خير من الآخذ .

والنبى ينفر الناس من الاستجداء ويكرهه اليهم فيقول : من فتح على نفسه بابا من المسألة فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر » ، ويقول : لاتزال المسألة بالعبد حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » .

ويحارب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ التسول ، فيعزر المتسولين ويصادر ماجمعوه ، وينفقه فى المصالح العامة للدولة .. جاءه سائل مرة فأمر أحد المسلمين أن يطعمه ، ثم جاءه مرة ثانية فوجده يحمل كيسا مملوءا بالطعام ، فضربه بالدرة ونثر كيسه أمام خيل الصدقة المحبوسة للجهاد فى سبيل الله (١) . وذلك لأن ما فيه هو من أموال المسلمين عامة ، أخذه بغير حق،فيرد اليهم بانفاقه فى مرفق عام هو ملك لهم جميعا .

والاسلام حين يحث على العمل ويرغب فيه ينهى ـ كما قلنا ـ عن الكسل والعجز والتخاذل ، ويستعيذ من ذلك . فهو لا يليق بالمسلم الذى انتدبه لأكرم رسالة فى الوجود .. فقد دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم المسجد . فوجد أبا أمامة جالسا فيه فى غير وقت الصلاة . فلما سأله عن السبب قال له : ديون لزمتنى وهموم لحقتنى . فأفهمه النبى أن الجلوس

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٠٨ .

فى المسجد والركون الى الكسل ليسا وسيلة يمكن بهما قضاء الدين وتفريج الهم ، وأمره بالسعى والعمل ، ولكن بطريقة لبقة حكيمة لايعقلها الا العالمون .. فقد أمره بأن يستعيذ بالله من الهم والحزن ، ومن العجز والكسل . والرسول الكريم لايستعيذ ولا يأمر بالاستعاذة من شيء الا اذا كان مذموما مكروها يأباه الدين ولا يرضى عنه الله ، فكأنه يقول له : نزه نفسك عن العجز والكسل ، وذلك لا يكون الا بالسعى والعمل ، وما دامت النية خالصة والطريق مشروعة فالله يعين العبد وييسر له السبيل حتى يصل الى ما يريد ... يقول أبو أمامة : علمنى الرسول هذا الدعاء أدعو به كل صباح ومساء : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال (١) » فعمل أبو أمامة بما أمره رسول الله ، حتى يسر الله له الأمر ، فسدد دينه وفرج همه فى زمن قريب .

وكلنا نعرف قولة عمر المشهورة « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

ولم يكتف الاسلام بحمل الناس على العمل فحسب ،ولكنه أمر أن يكون سعيهم الى الخير سعيا حثيثا فى همة ونشاط وصبر

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى ص ٢١٩ .

ومصابرة وانتهاز للفرص . ولعل هذا هو ما يشير اليه قول الله تعالى : « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » . والكدح هو المبالغة فى العمل وبذل الجهد فيه .

ومن النشاط المحمود المبكور واغتنام الساعات الأولى من النهار فى العمل ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «باكروا الغدو (أى الصباح) فى طلب الرزق ؛ فان الغدو بركة ونجاح» ،ويقول: « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » .

وكان الرسول ومن سبقه من الرسل يعملون ويسعون فى سبيل أرزاقهم . ويحدثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه علم داود ــ عليه السلام ــ صناعة الدروع السابغات ، وألان له الحديد ، وأن نوحا ــ عليه السلام ــ كان نجارا ، صنع الفلك وسخر منه قومه كلما مروا به ، وأن موسى ــ عليه السلام ــ كان يرعى الغنم فى مدين للشيخ الكبير « شعيب » ليقوت نفسه ويحصن فرجه

وتحدثنا السنة الصحيحة أن زكريا كان نجارا ، وأن جميع الأنبياء رعوا الغنم وقد ورد فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا ولا أرسل رسولا الا رعى الغنم ،فقيل له : حتى أنت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

وكان الصحابة ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ يجدون فى طلب الرزق .. فقد كان أبو بكر الصديق بزازا « تاجر أقمشة » ،

ويذكرون أنه خرج صبيحة بيعته بالخلافة حاملا على كتفه أثوابا الى السوق ، فاعترضه عمر بن الخطاب وبعض الصحابة وسألوه أن يضرب عن التجارة ليتفرغ لأمور الخلافة ومصالح المسلمين ، فقال لهم : ومما أنفق على أهلى ؟ انى ان أضعتهم فأنا للمسلمين أضيع » ، ففرضوا له فى بيت المال ما يغنيه عن التجارة ويكفى أهله ليتفرغ لمهام منصبه الجديد (١) .

وكان عمر دلالا ، يسعى بين البائع والمشترى . وكان يقول : ما من يوم يأتينى فيه الموت أحب الى من يوم أتسوق فيه لأهلى ، أبيع وأشترى (٢) » .

وكان عثمان بن عفان تاجرا ناجحا فى تجارته ، وهو الذى مون جيش العسرة ــ كما نعرف ــ من أمواله الموفورة التى جلبها من التجارة .

ويروى ابن عباس أن عليا كان يمنح ليهودى ، كل دلو بتمرة . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل . وكان عمرو بن العاص جزارا (٣) . كما كان عبد الرحمن بن عوف صاحب ثروة ضخمة تدرها عليه التجارة .

وهكذا كان جميع الصحابة والتابعين وكبار المسلمين يعملون ولا يأنفون من العمل ما دام شريفا . وتستطيع أن تلمس الكثير

(١) احسن التقاسيم للمقدسى ص ١٨٦ .
(٢) كتاب التاج المنسوب للجاحظ ص ١١٧ .
(٣) بصائر القدماء وسرائر الحكماء ص ١١٤ .

من ذلك فى كتاب « بصائر القدماء وسرائر الحكماء » ، فقد ورد فيه صناعات ومهن كثير من مشهورى الرجال فى الاسلام .

ولا يظنن ظان أن المهاجرين نزلوا المدينة كلاجئين ينتظرون معونة الأنصار ويعيشون كلا عليهم . ولا يفهمن أحد أن مقاسمتهم الأنصار فى أموالهم كانت منحة تعطى بدون مقابل ، فقد كان ذلك نظير عمل يؤديه المهاجرون للانصار . يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : لما قدم المهاجرون من مكة الى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، فكانت الأنصار أهل الأرض والعقار ، فقاسمهم المهاجرون على أن يعطوهم نصف ثمـار أموالهم كل عام ويكفوهم العمـل والمؤونة (١) » .

وبعد فانى لارى ـــ اجزالا للفـائدة ـــ أن أتناول مسـألة الزهد فى الدنيا ، حتى يعرف الناس حقيقة أمرها وموقف الدين السليم منها فأقول :

وردت آيات قرآنية وأحاديث نبـوية وآثار عن سلف الأمة وأقوال للحكماء تذم الدنيا ، وتهون من شأنها ، وتدعو الى الزهد فيها ، وتحذر من التهالك عليها . وهى كثيرة مشهورة ، يحفظها ويطرب لها كثير من الناس الذين فهموها على غير وجهها الصحيح .

والواقع أن الزهد فى الدنيا كما يريده الاسلام الحق الذى نزل على محمد بن عبد الله ليس أن نتركها ونعيش فقيرا معدما .

(١) [illegible]

أو سائلا متطفلا ، ولكنه عدم الاقبال عليها اقبـالا يشغلك عن واجبك نحو دينك ونحو وطنك ، بمعنى ألا يمتلك حبها قلبك امتلاكا ، فتنخدع بزخارفها ولذائذها . وفى ذلك يقول النبى عليه السلام : « تعس عبد الدينار والدرهم » .

والزهد بهـذا المعنى لا ينافيه أن تكون عظيم الثروة وافر المال مادمت عارفا لحق الله فتصل الرحم ، وتعين الفقير ، وتنفق فى وجوه البر ، ولا يشغلك المال عن طاعة الله . وهذا مايفيده قول النبى الكريم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

فجمع المال والابتغاء من فضل الله أمر مشروع ، لأن المـال هو عصب الحياة وعماد النهضات .

وقد فهم الصحابة وسلف الأمة قدر المال وما تعنيه الآيات والأحاديث الواردة بشـأنه ، فجمعوه من حله وأنفقوه فى حله ، وملكوا الثروات الطائلة ، ونعموا بطيبات الدنيا فى غير معصية ولهو عن طاعة الله ؛ وكان لـكبار أغنيـائهم مواقف مشرفة فى الأزمات الشـديدة ، تشهد بفضل الله فى نعمة المـال ، وبتوفيق أصحابه الى استغلاله فيما يفيد .

وقد كان أبو بكر من كبار الأغنيـاء فأنفق أكثر أمواله فى سبيل الدعوة الاسلامية ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليـه وسـلم : « رحم الله أبا بكر ؛ زوجنى ابنتـه ، وحملنى الى دار الهجرة . وأعتق بلالا من ماله ، وما نفعنى مال أحد قط كما نفعنى

مال أبى بكر » . ولم يبق هذا الصحابى العظيم لنفسه مدخرا فأنفق ما بقى منه حين أمر الرسول بالصدقة ، ولما سأله النبى : ماذا أبقيت لعيالك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله » .

وصنيع عثمان بن عفان مع جيش العسرة مشهور ، فقد تبرع اه من ماله بعشرة آلاف دينار ، صبها بين يدى الرسول ، ونحو مائتى بعير بأحمالها التموينية ، فتهلل وجه النبى بشرا عندما رأى هذه النفوس الخيرة المؤمنة التى لم تلهها الدنيا عن تلبية نداء الجهاد ودعوة البر ، وقال : ما ضر عثمان ما يفعل بعد هذا اليوم، غفر الله لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن الى يوم القيامة » .

وكان لعثمان تجارة عظيمة فى الشام فى عام القحط الذى أصاب المدينة فى خلافة أبى بكر ، فأسرع التجار فى مساومته عليها قبل أن تصل الى المدينة ، وكانوا يترددون عليه مربحين ، ولكنه أبى وقال : « هناك من زادنى » ، ولما يئسوا من معرفة التاجر الذى يزحمهم فى هذه المساومة تلا عليهم عثمان قول الله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » . ثم قال : يا أبا بكر، تجارتى تحت يدك . وزعها على الفقراء والمساكن»

والصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف لم ترض نفسه الأبية أن يعيش كلا على سعد بن الربيع عندما آخى النبى بينهما بعد الهجرة ، بل خرج الى السوق فجد ونشط فى التجارة حتى

أقبلت عليه الدنيا اقبالا عظيما وانثالت عليه الأموال انثيالا ، ولم يلهه ذلك عن واجبه نحو ربه وأمته ، فلبى نداء البر ودعوة الخير، وتصدق بأربعة آلاف درهم وأمسك لنفسه مثلها ، فقال له النبي: « بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت » . وتوفى — رحمه الله — وقد ترك أموالا طائلة ، أوصى منها بخمسين ألف دينار وبألف فرس فى سبيل الله ، وأوصى لكل واحد ممن بقى من البدريين اذ ذاك — وكانوا مائة — بأربعمائة دينار .

فماذا تقول أيها الأخ المسلم فى هؤلاء الرجال العظام الذين كانوا يفهمون دينهم الفهم الصحيح ؟ لم تشغلهم الأموال عن أداء واجبهم نحوه ونحو اخوانهم فى الله . ولم يتكالبوا على الدنيا ، ولم يزوروا عنها ، بل جمعوا بين الحسنيين .

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

فالزهد ليس مقياسه الفقر ، فقد يكون الرجل فقيرا ، لكنه حريص . شره ، جاد فى طلب الدنيا ، وان لم ينل منها ما يريد . وقد يكون غنيا وهو زاهد فيها ، كأبى بكر وعثمان وابن عوف وغيرهم ممن عرفوا حق الله فى أموالهم . فأنفقوها فى وجوه الخير والبر .

فاطلب الخير يا أخى لنفسك ولأمتك بسعيك وجدك ، ولا تستمرىء الكسل والتقاعد ، فالعمل والنشاط صحة لبدنك

لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » ، وقوله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » ، وقوله أيضا : « الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » ، وقوله لأهل الكتاب : « ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » ، وقوله يحكى قصة نفر من الجن : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » .

ولا يصح أن يفهم من ذلك أن التصادق بين القرآن الكريم والكتب السماوية كان مطابقة تامة بينه وبينها ، بل انه زادعليها بما شاء الله أن يزيد وعدل بعض أحكامها واستبدل بعضها .. وليس ذلك مما يقدح فى صحة الكتب السماوية وسلامتها وأثرها فى هداية الأقوام الذين نزلت فيهم ، فكل منها جاء صالحا فى زمنه الموقوت . وجاء القرآن الحكيم كمرحلة أخيرة عامة شاملة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . ولهذا كان صالحا للبشر جميعا .

ويعجبنى فى هذا الباب ما قاله عالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المرحوم الأستاذ محمد عبد الله دراز فى آخر بحث كتبه وختم الله به حياته .. قال رحمه الله : يجب أن يفهم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم ، ولا انكارا لحكم من أحكامها فى ابانها ، وانما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقرر .. مثل ذلك مثل ثلاثة من الاطباء جاء أحدهم الى الطفل فى الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن ، وجاء الثانى الى الطفل فى مرحلته فقرر له طعاما لبنيا وطعاما نشويا خفيفا ، وجاء الثالث الى المرحلة التى بعدها فأذن له بغذاء قوى كامل . ولا ريب هاهنا أن اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه . ثم ان هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتدفئة ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان ، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين . هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها الى يائها . ولكن هذا التصديق على ضربين ، تصديق للقديم مع الاذن ببقائه واستمراره وتصديق له مع ابقائه فى حدود ظروفه الماضية . ذلك أن التشريع السماوى يحتوى على نوعين من التشريعات ، تشريعات خالدة لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع . فاذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله ، أى أعادت مضمونه تذكيرا به وتأكيدا له .. وتشريعات

موقوته بآجال طويلة أو قصيرة ، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها .
وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة .
وهذا ــ والله أعلم ــ هو تأويل قوله تعالى « ما ننسخ من آية
أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » اهـ .

وقد وفق المرحوم الشيخ دراز أيما توفيق فى هذا التوضيح
التمثيلى البديع . والواقع أن من يتدبر آيات الذكر الحكيم يدرك
أن محمدا أرسل الى الناس من جميع الأمم والأجناس ، لا الى
العرب وحدهم . وقد كانت مدرسته الأولى شاهد صدق على
ذلك ، ففيها بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى،
وفيروز الديلمى . وكان فيها من قريش أبو بكر وعمر وعثمان
وطلحة والزبير وسعد وغيرهم ، ومن تهامة أبو ذر الغفارى ، ومن
اليمن أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى ، ومن البحرين منقذ بن
حبان ، ومن الشام عروة بن معان .

وهكذا كان يجتمع اليه ويتردد على مجلسه ويتلمذ عليه كل
من شرح الله صدره للاسلام ، لا فرق بين انسان وانسان ، فكلهم
مسلمون . وقد كانت كتبه ورسائله ــ عليه الصلاة والسلام ــ
دليلا قويا واضحا على عموم رسالته وشمول الدين الذى جاء
به .. فقد كتب الى النجاشى فى الحبشة ، والى المقوقس فى مصر ،
والى هرقل الروم والى كسرى فارس ، والى غير هؤلاء من ملوك
وأمراء وأقيال .

على أننا اذا أمعنا النظر فى جملة الأحكام التى جاء بها
القرآن كتاب الاسلام

الإسلام والحرية

لقد قدس الاسلام الحرية أعظم تقديس . وان من يتـدبر تعاليمه ويتأمل محكم آياته يدرك فى غير عسر أنه يمقت الاكراه والضغط أشد مقت ، ولو كان ذلك طريقا الى حمل الناس على اعتناق الاسلام نفسه ، يقول الله تعالى : «لست عليهم بمسيطر»، ويقول : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ويقول : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، ويقول جل شأنه « ماعلى الرسول الا البلاغ » .

فالايمان أمن وطمأنينة ، فكيف يكون التخويف والترهيب سبيلا الى الايمان ؟ ويقول الله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وعبادة الله وتحكيم شريعته لايأتيان على الوجه الصحيح الا بعـد التحرر من الخوف والتمكين فى الأرض ، يقول العلى الكبير : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

آفاق اسلامية د. عبد الحميد الخزرجي

ولما كان الاعتبار الانسانى لايقوم الا بالحرية بأن المسئولية القانونية الكاملة الصحيحة لاتتقرر الا للاحرار ، وتنتقص المسئولية اذا انتقصت الحرية ، يقول الله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » ، ويقول النبى الكريم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وكلنا نعرف ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لواليه على مصر عمرو بن العاص فى القصة المشهورة لما سبق شاب قبطى ابنه « ابن الأكرمين » . فاعتدى ابن الوالى على الشاب المصرى شفاء لغل الهزيمة ، فقال الخليفة عمر للوالى عمرو بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

وبذلك سبق الخليفة الاسلامى العظيم بعشرات القرون مشرعى الثورة الفرنسية حينما نصوا فى المادة الأولى من اعلان حقوق الانسان : ولد الناس أحرارا ومتساوين فى الحقوق » .. ياله من سبق الى الخير وسمو فى التفكير والتشريع ! .

ولقد كان من أصول رسالة نبى الاسلام ما حكاه الله عنه فى كتابه الكريم « ويضع عنهم آصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

ولعل من أوضح الشواهد على أن الاسلام يقدس الحرية بأوسع معانيها أنه جعل ولاية أولى الأمر مستمدة من جماعة

المسلمين ، وهى ما يعرف بالبيعة ، وجعل واجب الطاعة مقابل حق التولية والعزل ، يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وقد جعل الاسلام الشورى – وهى من مقوملت الحرية – علامة المجتمع المؤمن ، وقرنها بالصلاة ، يقول تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » . وأمر الله رسوله بأن يشاور صحابته « وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ولا يعرف الاسلام طاعة مطلقة ولا حكما مقدسا ، يقول النبى الكريم « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ويقول عليه السلام « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وقد افترض الاسلام حدوث الخلاف بين الحاكم والمحكوم كنتيجة حتمية للحرية التى يتمتع بها معتنقوه ، فرسم للمسلمين أقوم الحلول لذلك ، وهو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وجعل الاسلام مقاومة الجور والظلم فريضة ، لأنهما من أشق الأمور التى تهدر الحرية ، قال تعالى : « والذين اذا أصابهم

البغى هم ينتصرون » وقال جل شأنه : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » ، وقال الرسول عليه السلام : « أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر » ، وأضاف سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب : « ورجل قام الى امام جائر، فأمره ونهاه فقتله » .

وقد عقد الاسلام ميثاقا انسانيا لمكافحة العدوان والطغيان، قال تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

ولا بد أن تكون الحرية مكفولة للخصوم ، لا للانصار فقط ، فان امتحان الحرية العسير هو الصبر على ممارسة الخصوم لها . فالاسلام دين ، ولكنه لايحارب مخالفيه لمجرد صدودهم عن اعتناقه ، انما يحارب العدوان لا اختلاف الأديان. قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين » .

بقيت شبهتان قد يتخذ منهما أعداء الاسلام سهاما يصوبونها الى الحرية فى الاسلام ، وهما الرق والسيف . وهاتان الشبهتان متداخلتان ، فالرق نتيجة من نتائج الحرب ، والسيف

اذا علا أذل أعناق الأمم والأفراد على السواء . وقد كثرت فيهما كتابلت الباحثين . ونحن نريد فى هذا المقال أن نأخذ نصيبنـــا من البحث فيهما .

فأما الرق فقد عالجه الاسلام علاجا انسانيا ناجحا حافظ على كرامة الانســان . وقد كان الاسترقاق شائعة فى الأزمنـــة الغابرة فى كل بقاع الأرض ،فى فارس والهنـــد والصين ومصر القـــديمة والسودان واليونان والرومان وبلاد العرب . بل ان أرسطو ــ وهو المعلم الأول الذى ينادى بضرورة العـــدل بين الناس ــ يرى أن الرق أمر طبيعى ، وأن بعض النـــاس خلقوا ليكونوا أرقاء تحت سيطرة ساداتهم المواطنين الأثينيين .

وكان الأرقاء يباعون فى الأسواق علنا رجالا ونساء . وكان للسيد حق سجن العبد وجلده وتعذيبه ، بل وقتله أحيانا ، فضلا عن تسخيره فى أشق الأعمال وأحقرها . ووصل الأمر فى شرائع بعض الأمم كالرومان الى حد أن قوانينها تجعل للدائن الحق فى حبس مدينه الحر واســقاط حريته اذا لم يدفع الدين المطلوب منـــه ، وأن يسخره فى خدمته الى أن يستوفى دينـــه . فيسترد المدين بذلك حريته .

وانتهت العصور القديمة والوسطى بما فيها من جهـــالة وبطش وقسوة وظلم ، ولكن هل استردت الانسانية كرامتهـــا بعد ذلك ؟ كلا .. لقد ظل الرق باقيـــا ، ويكفى أن نعرف أن فرنسا أصدرت سنة ١٦٥٨ قانونا يبيح الرق عرف « بالقانـــون

الأسود » . وكانت انجلترا تبيحه كذلك ، ولطالما أخذ الزنوج من أحضان أمهاتهم فى افريقيا ليكونوا أرقاء مستعبدين . وكانوا ينقلون من بلادهم الى المستعمرات النائية ، وأهمها المستعمرات الأمريكية . ولا أدل على ذلك مما نراه الآن فى الدنيا الجديدة من هذا العدد الضخم من الزنوج الذين أخذ أجدادهم قهرا من أفريقيا أرقاء مستعبدين ، ولا زالوا يعانون ألوانا شتى من العنت والظلم والتعدى بسبب التفرقة العنصرية .

وهكذا يستمر هذا النوع من الاسترقاق تحت ستار المدنية الحديثة فيما نراه اليوم بأعيننا فى بعض البلاد الخاضعة لسلطان الدول الغربية ، وفيما هو حادث فى جنوب افريقيا على يد الأقلية البيضاء الظالمة ، وكذلك ما نراه فى « روديسيا » من تسلط أقلية أوربية ضئيلة وتحكمهم الغاشم فى سائر سكانها الأفارقة . ولا زال صدى هذا الاضطهاد يتردد فى كل بقعة من بقاع المعسورة . وقد دمغتهم هيئة الأمم المتحدة بقرارها الخطير وهب الأحرار فى كل مكان يستنكرون أعمالهم الوحشية الوضيعة .

هذا هو شأن الدول المتمدينة ، دول القرن العشرين . مع اخوتهم فى الآدمية والانسانية .. فتعالوا معى لنعرف موقف الاسلام العظيم من الرق والأرقاء .

ان الاسلام يمنع بتاتا النخاسة والاسترقاق بالمعنى الذى يفهمه الناس . كما يمنع اصطياد الزنوج أو غيرهم على النحو

الذى درج عليه المسترقون قديما وحديثا . فهو لايجيز استرقاق أى انسان عن هذا الطريق مهما يكن لونه ومهما تكن عقيدته ، مسلما كان أو غير مسلم . وانما يبيح الرق فى حالة واحدة هى حالة حرب عدوانية من عدو بعد اعلانه بقيام الحرب ضـده . فالاسلام لايبدأ بالعـدوان ، ولا يسمح بحرب الا بانذار من اعتدى أو خالن العهد أو نقض المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين.

هذا هو شأن المسلمين فى حروبهم ، والأسرى المحـاربون هم الأرقاء ، ولا يوجد فى الاسـلام رق الا بهـذا السبب .. فلا نخاسة ، ولا غزو ، ولا نهب ، ولا اختطاف لصغير أو كبير.

ولم يبح الاسلام مع ذلك للمسلمين أن يعـاملوا أرقاءهم كما كان الأقدمون والمحدثون يعاملونهم ، بل حض على احسان معاملتهم . كما أوجد أسبابا عدة لعتق الأرقاء ، لأنه يعتبر الرق حالة مكروهة ، فهو يعمل على ازالتهـا ، ويرى أن الحرية هى الأصل وأن الرق أمر عارض اقتضته ظروف خاصة .

واذا كان الرق قد أجازه الاسلام لسبب عارض مؤقت فانه عمل على تضييق مصادره بقصره على أسرى الحرب الشرعية ، وألزم الأفراد بعتق الرقاب فى الكفارات ، ورغبهم فيه باعتبـاره قربة الى الله تعالى ، قال جل شـأنه : « ومن قتل مؤمنـا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » . ويقول النسفى فى تفسير هـذه الآية : « قيل لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحيـاء لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار ، لأن اطلاقها من قيد الرق كاحيائها،

من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، اذ الرق أثر من آثار الكفر والكفر موت حكما ، أو من كان ميتا فأحييناه » .

كما فرض الاسلام على حكومته أن تجعل من أبواب انفاق الزكاة عتق الرقاب ، قال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » .

وقد قرر الاسلام معاملة الأرقاء معاملة كريمة تجعل للرق « غير ذى موضوع » ، أو علاقة اجتماعية استنفدت أغراضها.. ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » ، وقوله « فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فان الله ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم » . ومن آخر وصاياه عليه السلام «الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

وكان الرسول الكريم ينهى عن ذكر اللفظ نفسه ، لأنه يشعر باستعلاء المسترق على المسترق ، فيقول : لايقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » . وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : انى لأخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول الله ربى » . وكان النبى يأمر المسلمين بالرفق بالأرقاءوعدم القسوة فى معاملتهم فيقول : « من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته عتقه » . وحديثه المشهور لايستبعد الرقيق من ولاية أمور

المسلمين ، وفيه يقول : اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

وقد سعى الاسلام فى تسهيل عتق الأرقاء فجعل للرقيق حق المكاتبة ، وهو أن يكاتب سيده على مبلغ من المال يدفعه فورا أو على أقساط ، ويشترى بذلك حريته ، قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

من هذا نرى أن الاسلام قد ألغى الرق « موضوعا . وهو لايرغب فى الزواج من الاماء حتى لايتكاثر الرقيق ، لأنه يريد للرق أن يذوى وللحرية أن تزدهر ، يقول الله تعالى : «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ؛ والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض » .

ومع ذلك فان أنجبت الأمة ولدا قرر الاسلام لها مركزا غير مركز الرقيق ، انها تعتق وتصير « أم ولد » ، وليس لسيدها أن يتصرف فيها بهبة أو بيع ، ويكون ولدها حرا .

والاسلام يتلمس كل وسيلة مهما تكن واهية لعتق الرقيق، فيكفى من السيد أن ينطق به « أى بالعتق » ليقع ، ولو كان مازحا أو مكرها أو فاقدا رشده بفعل خمر أو غيرها .

وأخيرا يعمل الاسلام على القضاء على ما بقى من أشكال

الرق ومراسه ، وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « شر المـال فى آخر الزمان المماليك » .

وأما السيف فلا ينتضى الا لدفع الفتنة ورفع الضغط عن حرية الرأى ، قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

أما حرب العدوان والتوسع فى السلطان فهى مرفوضة فى حكم الاسلام . قال تعالى : « تلك الدار الآخـرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسـادا ، والعـاقبة للمتقين » .

فاذا كفلت حرية الرأى ، وخلى بين النـاس وبين خالقهم يتفكرون فيه بحرية ويعتنقون ما يريدون بارادة ووعى فمجـال الدين هو الاقناع والبرهان ، ولا مجال للسيف ما دامت حرية الرأى مكفولة سواء أسلم الناس أو لم يسلموا .

والاسلام هو الدين الواثق من نفسه ثقة لا يأبه معها أن يجبر العدو ، ثم يوصله بسلام الى معسكره ليستأنف قتاله من جديد اذا أراد مادام قد أسمعه كلمة الهدى وسلك به سـبيل الاقناع . قال تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » .

واذا حمل المسلمون على القتال فرض عليهم الاسلام آدابه ومثله النبيلة ، فلا يتبع المسـلم المدبر ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل امرأة ولا شيخا ولا طفلا . ولا يعيث فى الأرض فسادا بالتخريب والتقتيل والتحريق ولو فى النبات والحيوان .

وحين يغلب السيف لايفرض الاسلام فى ظله . فالأديان والعقائد لا تعتنق تحت ظلال السيوف ، بل يكتفى الاسلام هنا بضربة رمزية ، ويكتفى بما أتيح للمسلمين من فرص الدعوة الى دينهم بأخلاقهم وسلوكهم ومنطقهم .

والاسلام العظيم يقرر الحرية علىاختلاف ألوانها ويحميها. فحرية التملك والتصرف فى المال مقررة فى الاسلام للرجل وللمرأة على السواء . كذلك حرية العمل وحرية الفكر ، وحرية اعتناق المبادىء ، وحرية الانتقال وحرية الاجتماع .. كل هذه الحريات وأمثالها مصونة فى الاسلام بشرط ألا تضر بمصالح المجموع الذى ترعاه شريعته وتحميه سلطة دولته .

وشريعة الاسلام لاتجيز التعسف فى استعمال الحق ، يقول النبى الكريم « لاضرر ، ولا ضرار ، ولا استئثار ، ولا غلول ».

(الضرار : المضارة . غل يغل غلولا : خان من المغنم) .

وقد صان الاسلام حرمات الانسان الشخصية بالنسبة لسلطات الدولة نفسها ، فلا جريمة ولا عقوبة الا بنص القانون، يقول تعالى : « عفا الله عما سلف » . والمتهم برىء الى أن تثبت اداتته . والشريعة الاسلامية تقرر ضمانات فى الاستدلال والتحقيق والمحاكمة ، ولا تميل الى التأثيم والتجريم بغير دليل قاطع .. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ادرأوا الحدود بالشبهات » ، ويقول عليه السلام : ادرأوا الحدود عن المسلمين

ما استطعتم ، فان وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سـبيله ، فان الامام لأن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

وبعدفهذا هو موقف الاسلام العظيم من الحريات بأنواعها ، ومنه تدرك أنه قد كفلها جميعا ، ووفر للفرد كرامته وانسانيته وعزته بهذه الكفالة ، على شريطة ألا يكون فى ذلك تحيف على أخيه الانسان أو على المجتمع .

مفهوم الإشتراكية في الإسلام

لعل من أهم ما يهدف اليه الاسلام حرصه على اذابة الفوارق المادية بين الناس ، والتقريب بين الطبقات التى باعد المال فيها بين الانسان وأخيه ، ففرض الزكاة ، وهى حق معلوم يجب أن يؤدى فى كل ما يملكه الانسان بنسبة معروفة الى الفقير والمسكين والمحتاج .. لا على أنها صدقة ، بل على أنها حق واجب الاداء . فلا يخدش بذلك حياء الفقير ، ولا يطامن من عزة المحتاج .

وفى سبيل التقريب بين الناس حرم الاسلام الربا ، لأنه يضاعف الثروات على حساب استغلال حاجة المحتاج .

وقد أراد الاسلام بذلك أن يخلق المجتمع المتكافل الذى لا يحقد فقيره على غنيه ، ولا يعيش غنيه بعيدا عن فقيره . بل يصبح الغنى وهو يحس بأخيه الفقير فيعطيه ، ويعرف الفقير أن الغنى انما هو أخ خصه الله بسعة فى الرزق فلم يحرمه ، وانما قدم له حق الأخوة وحق الاسلام « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فكل من أشاع غير ذلك بين المسلمين فانما

أراد أن يخلق فى المجتمع الاسلامى طبقات متنافرة متباغضة متحاسدة ، فيحقد الفقراء على الأغنياء ، ويزدرى الأغنياء الفقراء وبذلك تتصارع القوى بين افرأد الوطن الواحد ، فيتصدع المجتمع ويهوى الى قرار سحيق .

واذا كانت الاشتراكيات بكل نظمها وألوانها تلتقى على معنى اشتراك الأفراد فى موارد الدولة ، أقول اذا كانت الاشتراكيات كذلك فان الاسلام بمدلوله الواسع يشمل أجمل صور الاشتراكية ، ويزيد عليها بما يحقق الحياة الطيبة للفرد والجماعة والأمة والانسانية .

والاشتراكية الاقتصادية التى يرضاها الاسلام ويباركها ويدعو اليها تنبع من معين نظيف هو القلب الانسانى المؤمن المتدين الحر الذى يؤمن بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه هو الذى يعطى ويمنع ؛ وأن الغنى عارية منه مستردة ، وأن الخير الذى ينعم به الانسان سببه أن الله جعل له الأرض ذاولا يمشى فى مناكبها ويأكل من رزقها ، يقول تعالى : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

والسماء بما فيها ، والكون بما فيه مسخر للانسان ، ميسر لمصالحه كما يفهم من قوله تعالى فى مواطن كثيرة من كتابه

العزيز ، من مثل قوله جل شأنه « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لاية لقوم يذكرون .. الى آخر الآيات » ، وصدق الله العظيم حين قال : «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم » .

لهذا كان طبيعيا أن يسمى المال مال الله يأخذ منه الانسان لقاء الجهد الذى يبذله فى سبيل السعى اليه والحصول عليه ، وأن يسمى الانسان خليفة الله عليه ، ينميه بالوسائل المشروعة وينفق منه فى الوجوه المشروعة ، كما يفهم من قول الله سبحانه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

وقد أعجبنى أشد اعجاب أعرابى كان يسوق أمامه مالا كثيرا « المال هو الابل والغنم » فسئل : لمن هذا المال ؟ فقال : لله فى يدى . ولم يكن هذا الأعرابى ـ بطبيعة الحال ـ ممن لقنوا مبادىء كارل ماركس وغيره ، وانما كان أحد أفراد المجتمع الاسلامى العربى الذين تعهدهم الاسلام بالتربية السليمة والتوجيه الرشيد . حتى جعل منهم « خير أمة أخرجت للناس » وجعل من مجتمعهم خير مجتمع عرفه الوجود .

وهذا الجواب الذى رد به الأعرابى على سؤال السائل تتركز فيه — على ايجازه — كل معانى الاشتراكية التى جاء بها الاسلام . ثم هو تعبير صادق عن شعور المسلم نحو خالقه الذى خلقه وسواه ، والذى يعلم سره ونجواه ، اذ يشعر بأنه لا يملك ما فى يده ، لأنه يؤمن بأنه وما ملكت يداه لخالقه ورازقه .

وكيف لا وهو يرى ذلك ويسمع آيات الله تتلى عليه وتهز شعوره وضميره وتفكيره بمثل قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .

بهذه الآيات وغيرها — وما أكثرها فى القرآن الكريم — تفتحت القلوب والأذهان على الحقيقة التى تصل المسلمين بالسماء ، وتمكن لهم فى الأرض ، وتهيىء لهم أسباب البر والخير وهذه الحقيقة هى أن الله جل وعلا « له الخلق والأمر » ، « لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شىء قدير » « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

ويستتبع الايمان بهذه الحقيقة أن يشعر الانسان بأنه مدين

لله بحياته وبما تقوم عليه حياته ، وأن ينظر الى الناس حوله على أنهم اخوة ينتمون معه الى أصل واحد ، ويدينون معه باله واحد . فمن حقهم عليه وحقه عليهم أن يعينهم وأن يعينوه ، وأن يكون معهم ويكونوا معه كما يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ، وكما يقول سبحانه « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

وعلى هذا الأساس ، وبهذا الاحساس استقبل الأنصار فى المدينة اخوانهم المهاجرين من مكة ، فقبلوا عن طيب خاطر أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم ، بل لقد كان بعضهم يؤثر آخاه على نفسه ، ولا يجد فى صدره شعورا بحسد أو ضيق اذا خصه النبى صلى الله عليه وسلم بشىء دونه . وهذا واضح من قوله تعالى « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم . ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وقد كان نظام المؤاخاة فى أول العهد بالاسلام يقضى بأن يرث المسلم أخاه فى الاسلام ، وبأن يتعاونا على الحق والمواساة وبقى هذا النظام متبعا حتى عزت الدولة بالنصر فى موقعة بدر . وفرضت الزكاة ، وكثرت الأموال والأنفال ، وذهبت وحشة الهجرة والشعور بالغربة عن المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم

بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . عندئذ صار التوارث قاصرا على دوى القرابات ، ونزل فى ذلك قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » .

ومعنى ذلك أن ذوى القرابات بعضهم أولى بارث بعض من الذبن جمعوا بين الايمان والهجرة . ويلاحظ أن الدين والايمان قدر مشترك بين دوى القرابة من الأنصار والمهاجرين على السواء ، لأن اختلاف الدين يمنع الميراث ، وأن القرابة أمر زائد يبرر الارث . أما الهجرة فقد خفت قسوتها على المهاجرين بعد أن ألفوا الاقامة بالمدينة وعرفوا طريق الكسب والحياة فيها ثم ان الايمان يدخلهم فى معنى الاخاء العام ، ويكفل لكل مؤمن على أخيه المؤمن حق المؤازرة والمناصره والتعاون على البر والتقوى . وما الى ذلك من معانى البر والخير التى نفهم من قوله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » . وليتأمل القارىء قوله تعالى « بعضهم أولياء بعض » ليدرك من معانى الاشتراكية فى الاسلام ما لا يتسع له المجال فى هذا المقال .

ونخلص من ذلك الى أن الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى يختلف اختلافا جذريا عن الاساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى غيره من المجتمعات ..

انها فيه تعبير عن شعور كل فرد فيه بحق أخيه عليه ، ولا يكمل ايمانه بدونه .. انها فيه ثمرة طيبة لشجرة طيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » ، وفى غيره ثمرة مرة لنزاع مرير وصراع طال مداه بين العمال وأصحاب رءوس الأموال . انها فيه تقوم على الايمان بالله خالق الجميع ، ورازق الجميع وعلى أن المال مال الله فيجب أن يوجه لخير الجميع وصالح الجميع ، وعلى أن المؤمنين اخوة فيجب أن يتعاونوا على البر والتقوى كما يقول الله ، وأن يكونوا « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » كما يقول رسوله عليه السلام .

هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى ، بل فى ضمير كل فرد فيه ، يؤكده النبى الكريم بقوله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » ، وقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقوله « ما آمن بى من بات شبعان وجاره الى جانبه طاو » ، وقوله « أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برىء منهم الله ورسوله » .

وهذا الأساس هو وحده الذى تقوم عليه الحياة الطيبة للفرد والجماعة والأمة فليس المال ملكا خالصا للدولة حتى تأكل جهود الأفراد وتلغى وجودهم وليس ملكا خاصا للافراد حتى يحق لهم احتجابه واختزانه ، أو استغلاله بطرق آثمة ووسائل ظالمة كما هو الشأن فى الرأسمالية .. انما هو ملك لله ، يأخذ منه الانسان بالوسائل التى شرعها الله ، وتأخذ منه الدولة بمقدار ما

يعينها على تأمين حدودها وتأكيد وجودها وتيسير أسباب الخير والحياة الطيبة لبنيها .

فالملكية الفردية مشروعة فى الاسلام على أساس أنها ملكية نسبية ناقصة ، لا ملكية خالصة كما ذكرت .

والضرر الخاص الذى قد يلحق بعض الأفراد يجب أن يتحمل فى سبيل دفع الضرر العام كما هى القاعدة الشرعية .

وهكذا نرى الاشتراكية فى الاسلام تحمل طابع العدل والايمان ، لأنها من وحى الله وهدى النبوة . ولو ذهبنا نعرض صورها وأثرها فى المجتمع الاسلامى لطال بنا هذا المقال . وحسبنا أن نضع أمام الأنظار هذه الصورة التى رآها نبينا الكريم وتحدث عنها .. انها تمثل قبيلة من العرب يدعى أهلها باسم « الأشعريين » وينسب اليها أبو موسى الأشعرى .. يحدثنا النبى عن هذه القبيلة فيقول : ان الأشعريين اذا أرملوا « أى افتقروا » وفنى زادهم أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى اناء واحد بالسوية .. فهم منى وأنا منهم .

فأى شرف خلعه خير من أقلته الأرض وأظلته السماء على هذه القبيلة الكريمة بأن جعلهم منه وجعل نفسه منهم .

وأى معنى للاشتراكية أنبل وأجمل من هذا المعنى ؟

تالله لو يمم العالم وجهه شطر هذه الاشتراكية التى رسمها الاسلام لأضحى عالما سعيدا تظله المحبة والتواد والتراحم والاخاء .

الإسلام والحرب

ان الاسلام بمبادئه السامية دين سلم وسلام ، وقد ثبت بالدليل القاطع أن الرسول الكريم لم يكن معتديا ، ولم يبدأ بالعدوان قط . وقد صمد — عليه السلام — وصبر وصابر ، ولقى ألوانا من الأذى والعنت والتصدى فى سبيل نشر رسالته .

ولما رأت قريش أن فى هجرته ورجاله الأولين خطرا يهدد دينها ومجتمعها ، وثبت لها أن ما أقدمت عليه من خطوات سابقة كالاغراء ثم المقاطعة ثم التهديد لم يكن له أثر فى ايقاف الدعوة السماوية — لما رأت قريش ذلك لم تجد مناصا من أن تمتشق الحسام وتسل المهند ضد محمد وأصحابه ، فيتم بذلك القضاء على الدين الجديد .

ولهذا لم يجد النبى عليه الصلاة والسلام بدا من أن يتصدى للعدوان ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ولم يكن هناك مفر من أن تقرر الاسلام ذلك حفاظا على دعوته ، وصونا لها من

أن تندثر وهى فى مهدها ، قال تعالى : « فان قاتلوكم فاقتلوهم » وقال جل شأنه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وهكذا فرضت الحرب على المسلمين وهم كارهون لها « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا من يقاتلهم وألا يبدأوا بالعدوان لأن ذلك يكون دفاعا عن النفس ، والدفاع عن النفس واجب ومشروع ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » .

وأمرهم الله ألا يقاتلوا فى المسجد الحرام أو الأشهر الحرم الا اذا قوتلوا فيها « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم » ، « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

ولما اشتد خطر المشركين ، وبدا أنهم يتربصون بالنبى ورجاله فى كل وقت وفى كل مكان أذن الله للمسلمين بالقتال مطلقا « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » .

فالاسلام أباح لرسوله وللمؤمنين الأولين الحرب دفاعا عن أنفسهم ووجودهم أولا ، ثم محاولة للقضاء على الوثنيـــة التى تلطخ جبين البشرية والعقل الانسانى ثانيا .

وليس الاســـلام بدعا فى ذلك ، فقـــد ســبقته فيه ديانات سماوية أخرى . فالمسيحية مثلا اضطرت فى القرن الرابع ــ أى بعـــد أن أصبح لها دولة تحت قيـــادة الامبراطور قســـطنطين الرومانى ــ أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية .

وقد وردت فى الكتب المقدسة السابقة أوامر تطالب ــ فى شدة ــ بقهر الوثنيين وابادتهم .. من ذلك ما جـــاء فى الـــكتاب الخامس من الزبور : « اذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبدا »

فالاسلام لم ينفرد بالقتال المشروع لرد العدوان كما ذكرنا، ولكنه انفرد بأمر هام خليق بالاعتبار ، وهـــو تلطيف مجـــازر الحرب والتخفيف من ويلاتها الى آخر مدى يمكن الوصول اليه بدون اخلال بسلامة الحوزة وعناصر النصر المكفول .

فقد وضع للحرب حدودا ، وشرط على المقاتلين المســـلمين والغزاة شروطا ، كلها ترمى الى احترام الدماء البشرية وحقنهـــا بقدر المستطاع ، واتباع أرقى ضروب العطف على الانسانية ، كما سنعرف فيما بعد .

وليس هناك دليل أقوى وأوقع فى النفس وأدل على ال
من شهادة رجال ليس بينهم وبين الاسلام أية صلة ، وانماه
مؤرخون منصفون ، قد نصبوا أنفسهم للدفاع عن الحق ل
غير .. ومن هؤلاء « الكونت هنرى دى كاستری » أحد حـ
الجزائر السابقين ، فقد قال فى كتابه « الاسلام : تأثـر
ودراسات » ما نصه (١) :

« وبعد أن دانت العرب للاسلام واستنارت قلوبهم بهـ
الدين برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هى -
المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، اذعانا لما ورد فى القرآن
التوصية بمحاسنة الناس بعد تلك الآيات التى كانت تنـ
القبائل المارقة ، كقول القرآن « لا اكراه فى الدين قد تبين الر
من الغى » ، وقوله « واصبر على ما يقولون واهجرهم هـ
جميلا » ، وقوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأر
هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . ويمضى الكو
دى كاسترى قائلا : « هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخـ
العرب فى الاسلام . وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده . وذ
يضطرنا الى القول بما قاله قبلنا « روبنسون » من أن شـ
محمد هم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ومحبة انتشـ
دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح وهو سـ
لا حرج فيه . فنشر الاسلام جناحيه خلف جيوشه الظافرة ،

---

omte Henri de Castries : L'Islam : Impressions et Etudes P. 99.

أغاروا على الشام و تقضوا انقضـاض الصواعق على افريقيـا الشمالية من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسى ، ولم يتركوا أثرا للعسف أو التخريب فى طريقهم الا ما كان لابد منه فى كل حرب . فلم يبيدوا قط أمة أبت الاسلام » .

ثم قارن دى كاسترى بين هذا اللين والعطف الذى أبداه الاسلام وبين التشـدة والروح الحربية القاسـية التى بدت بين الأديان التى تقـدمته ، ونقل عن الـكتاب الخامس من الزبور قوله : « اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الايمان . فان قبلته فقد سلم كل من فيها ، وان أبت فشدد الحصار عليها ومتى وفقك الله للظفـر بها فاحطم رأس كل ذكر فيهـا بحـد الحسام » . ثم قال دى كاسـترى : فكان من وراء محاسـنة المسلمين للامم المقهورة ان انتشر الاسلام بسرعة وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم باسره المملـكة الرومانية الشرقيـة المسيحية ، فقد أبغضها الناس وكرهوا الحياة فى ظلهـا .. واذا انتقلنا من الفتح الأول للاسلام الى حين استقراره ورسوخ أقدامه رأيناه أكثر محاسنة وأكرم معاملة للمسيحيين فى الشرق كله . فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى . بل بقيت روما نفسها مرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الاسـلامية .. الى أن قال : وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هى التى ضعضعت الديانة النصرانية الى حد كبير ، ثم زالت بالمـرة من

شمال افريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره. فلم يكره على الأخذ به أحدا بحد السيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب .. ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين .. الخ » .

ويقول العالم الباحث الكبير الأستاذ « دوزى » فى كتابه « أبحاث فى التاريخ السياسى والأدبى لاسبانيا فى العصور الوسطى » ما نصه (١) :

« أن هذا الفتح لم يكن ضارا باسبانيا « يقصد الفتح الاسلامى » . وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش . وقد تولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين وحصل بينهم تزاوج كثير »

وتلك الفقرات التى أوردناها لعالمين من مسيحيى العالم القديم « أوربا » وهاكم عالما آخر من يهود العالم الجديد

Dozy : Recherches sur l'Histoire Politique et Littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age. V. 1. P. 204.

« أمريكا » ، هو الأستاذ « دراير » من أشهر علماء الاجتماع بجامعة « نيويورك » .. يقول فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » (١) :

« عامل العرب اليهود فى الأندلس فى ظل الحكومة الاسلامية أكرم معاملة ، حتى أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية فى الادب والفلسفة .

هذه أقوال نفر من علماء الغرب الذين يدينون بغير الاسلام وهى وغيرها تدل على أن الاسلام جاء بأصول أسمى مما كانت عليه الأديان التى سبقته ، سواء فى الحرب أو فى السياسة ، وذلك واضح من المقابلة بين تاريخ المسلمين وتاريخ من سبقهم من جميع الملل .

ونعود بعد ذلك الى شرعية القتال فى الاسلام فنرى أنه ـــ كما قلنا ـــ كان لرد الاعتداء أو لصيانة الدعوة ونشرها وحمايتها . وفوق هذه الأسباب سبب آخر هو أن الله عز وجل لم يشأ أن تعامل قريش معاملة الأمم التى خلت من قبلهم فى الازمان الغابرة ، فينزل عليها العذاب من السماء ؛ أو يخسف بها الأرض كما أهلك غيرها من الأمم السابقة التى كذبت رسله فحق عليها العذاب « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

---

(1) Drapper : Contention between The Science and The Religion.

لم يشأ الله الرحيم أن يعامل قريشا كما عامل عادا الذين بعث اليهم هودا عليه السلام ، فكذبوه فأرسل عليهم ريحا عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأبادتهم «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » .

أو كما عامل ثمود الذين بعث اليهم صالحا فلم يتبعوه فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وهلكوا « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » .

أو كما عامل قوم نوح الذين أهلكهم بالطوفان « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين » .

لم يشأ الله تعالى أن يعامل قوم الرسول الكريم كما عومل هؤلاء من قبلهم ، فان الرسول لم يدع عليهم بالهلاك كما فعل الرسل من قبله ، وانما كان يدعو لهم بالهداية « اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون » ، ولكنهم أبوا واستكبروا وتصدوا له بالأذى هو ومن آمن به ، فشرع الله القتال لتأديبهم وللدفاع عن الاسلام والمسلمين ورفع كلمة الله ، لعلهم يرعوون ويعودون الى رشدهم . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ، فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها » . ويروى أنه — عليه السلام —

أمسك السيف فى يمينه والقرآن فى يساره وقـال : بعثت بهذا وبهذا لأقوم بهذا من أعرض عن هذا » .

ولقد اتفق المؤرخون المنصفون على أن الرسول لم تكن له رغبة فى القتال ، بل كانت أمنيته ان يؤدى رسالته كما أمره الله تعالى فى هدوء ويسر . وهذه الفكرة الجليلة هى التى باعـدت بينه وبين الحرب منذ أن بدأت قريش معارضتها للدعوة المحمدية وأخذت تقدم للرسول وصحبه أشـد ألوان الأذى والاضطهاد والتصدى . ولهذا نراه عازفا عن الحرب ، كارها لها ، حتى ان أهل يثرب لما عرضوا عليـه فى أول الأمر أن يتصـدى لقريش بالسيف قائلين : والله الذى بعثك بالحق ان شئت لنملين على أهل منى بأسيافنا » رفض بشدة ، لأنه لم يكن يؤمن بالحرب كوسيلة لنشر الدعوة ؛ وانما كان يؤمن بالاقناع وبسط أصول الدعوة السليمة لدى القوم . بيد أنه لما رأى كفار قريش يتصدون لـه ويناجزونه من جهة ، ويحولون بين الناس وحرية الاعتقـاد من جهة أخرى وجد أنه لابد من امتشاق الحسام لوضع حد لذلك

ولم يكن الاسلام فى حاجـة الى كسب الأنصار بالقـوة والعنف ، وانمـا كان يكسبهم بالاقنـاع والحجج السـاطعة والبراهين القوية ادا ما خلى بينهم وبين التفكير الحر البعيد عن التهديد والضغط والوعيد والارهاب .

وقد أمر الله نبيه بأن يدعو الناس الى الاسلام بالحسـنى فقال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمـة والموعظة الحسـنة .

وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ، وقال جل شأنه : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

فأعداء الاسلام هو الذين أكرهوا المسلمين على الحرب ، لأنهم أرادوا أن يفتنوهم عن دينهم بالقوة « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا». فكان لابد للمسلمين من حماية أنفسهم ودرء الأذى عن دينهم .

والنزعة الحربية فى فطرة الناس ومن غرائز المجتمعات ، ويقول علماء الاجتماع ان الحرب من أسباب قيام الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها ، حتى يلتزم الناس حدودهم ، ويحترموا حقوق الآخرين ، فلا يستشرى الفساد والظلم ، ويستبد الأقوياء بالضعفاء ، ويحال بين الناس وحرياتهم ،وتتعطل بالتالى شعائر الدين ، وتتهدم أماكن العبادة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» . ولهذا كان تهذيب فكرة الحرب فى النفوس وحصرها فى أدق حدودها وأسمى طرائقها وتحديد أهدافها ، هى غاية ما ترجوه البشرية .

وقد نظم الاسلام هذه النزعة أسمى تنظيم ، ووجهها أسلم وجهة ، وأنزلها فى المنزلة التى خلقت من أجلها وجعلها سياج ملكه والمثل الأعلى لأخلاق جنده وعدها من أسمى العبادات المفروضة وربطها بغيرها ، مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة لحفظ العقيدة وصون الحرية وقيام الدولة وارهاب العدو ، لا للعدوان،

وجعلهـا آخر ما يلجأ اليـه المسلمون من أدوات الاقناع ولغة التفاهم مع المعتدين .

ولهذا كانت الحرب خيرا وبركة على المسلمين ، فأعزتهم فى ديارهم ، ومكنتهم من أعدائهم ، وملكتهم ما لم يكونوا يملكون ، وأطلقت سلطاتهم فى العالمين .

وقد تناول القرآن فى كثير من آياته القتـال من جميـع نواحيه ، فعرض للاسباب الباعثة عليه . وللغاية التى ينتهى اليها وعرض لما يجب على المسلمين من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ووضح الكثير من قواعده وأحكامه .

كمـا بين القرآن أن القتـال فى سبيل الله يضـاعف أجر المجاهدين ، لأن فيه انقاذا للضعفاء ، ومقاومة للطغيان ، ودحضا لعوامل الشر .. قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقـاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وما لـكم لا تقاتلون فى سـبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

وأوضح القرآن أجر المجاهدين فى سبيل الله بالنفس والمال وذكر أن هذا الأجر لا يقف عند حد ولا يدركه الا عالم الغيب والشهادة ، فقال : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

كمن آمن بالله واليوم والآخر وجاهد فى سـبيل الله لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمـة منه ورضـوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم » وقال : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقـرآن ، ومن أوفى بعهـده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »

وقد حبب الاسلام الجهاد الى المسـلمين ، وحثهم عـلى التضحية فى سبيل الله بكل عزيز ونفيس .. فلا الآباء ولا الأبناء ولا الاخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا التجارة ولا المساكن .. كل أولاء لايصح أن يحولوا بين المؤمنين وما تقتضيه محبـة الله ورسوله من تضحية وجهاد ، قال تعالى : «قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ؛ والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وقد أقام المسلمون فى مكة أعواما يسامون الخسف وسـوء العذاب ويضطهدون فى حريتهم الدينية وفى عقيدتهم ، ويفتنون فى أموالهم وأنفسهم حتى أكرهوا على الهجرة . وكم تجاوبت فى

نفوسهم فكرة رد الظلم والانتقام من المعتدين ، ولكن الرسول الكريم كان يدعوهم الى الصبر والمصابرة ، لأنه لم يتلق الأمر بالقتال ، ويقول لهم : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

وظلوا على هذه الحال الى أن نزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » ، وقوله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » .

ولقد كانت فتنة المؤمنين عن دينهم أكبر شىء عند الله ، ولذا كانت الغاية الأولى التى شرع القتال من أجلها . والحجة على ذلك ما نزل من الآيات الكريمة فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى حينما أثارت قريش القبائل ضد هذه السرية بحجة أنها استحلت الشهر الحرام وسفكت فيه الدماء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

ومعنى ذلك أن القتال فى الشهر الحرام وان كان اثما كبيرا الا أن ما اجترمه كفار قريش من اضطهاد المسلمين ، والصد عن

سبيل الله والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام واخراج أهله منه .. كل ذلك أكثر اثما وأشد نكرا .

والاسلام يبث فى نفوس المجاهدين القوة والشجاعة، ويحثهم على الاقدام ويذكرهم بأن الله لن يتخلى عنهم ، يقول : « اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ، ويقول جل شأنه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

ويمكن أن نجمل الأصول التى قامت عليها الحرب فى الاسلام فى الأمور الاتية :

١ ــ دفع الظلم والبغى والاضطهاد عن المسلمين ، ورد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين . روى أبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن الزبير . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » .

واشترط الاسلام أن يكون الدفاع ورد العدوان على قدر الاعتداء ، فلا يصح أن يجاوز حده «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا

عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . وذكر أكثر من مرة أنه لا يحب المعتدين ، بل انه حبب الى المسلمين العفو ومقابلة الاساءة بالصبر « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

٢ ــ المحافظة على حرية الاعتقاد للذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

٣ ــ حماية الدعوة حتى تبلغ الناس جميعا ويتبين موقفهم منها ، لأنها دعوة تحمل رسالة اجتماعية اصلاحية شاملة تنطوى على مبادىء الحب والخير والعدل . فمن حاول أن يقف فى طريقها أو يصد الناس عنها يجب أن يستأصل من طريقها « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب » ، ويقول « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

٤ ــ تأديب ناكثى العهد من المعاهدين « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » .

٥ ــ اغاثة المظلومين من المؤمنين والانتصاف لهم من الظالمين « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » .

٦ ــ الكف عن القتال اذا كف عنه الأعداء « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » . والاسلام يدعو جنده الى الجنوح للسلم ان لاحت بارقة أمل فيه ، والى اطفاء نار الحرب ، الا اذا استنفدت جميع وسائل المسالمة « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

ويذهب الاسلام فى الجنوح للسلم الى أبعد حد ، فهو يدعو اليه ولو كان هناك بعض الاحتمال فى أن يكون اظهار الميل الى الجنوح له من الأعداء خداعا « وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

٧ ــ قصر الحرب على المقاتلين ليس غير ، فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان .. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقاتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » وروى عنه أيضا : « لا تقتلوا شيخا فانيا ولا صغيرا ولا امرأة » وكان الرسول اذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للأكل » .

أفرأيتم بعد هذا انسانية أسمى مما رسمه نبى الاسلام للمجاهدين المسلمين ؟

٨ ــ تحريم التمثيل بالقتلى والاحراق بالنار ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا ، وان النار لا يعذب بها الا الله » .

٩ ــ تحريم تجويع الأعداء واتلاف الأموال . وكان النبى قد أمر باحراق نخل بنى النضير أثناء حصاره لهم بقصد حملهم على التسليم ، فلما رأوا ذلك قالوا له : انك تنهى عن الفساد فى الأرض، فما بال قطع الأشجار وتحريقها ؟ فأمر الرسول بالكف عن التحريق ، ونهى عن التخريب فى بلاد العدو . وكان أبو ثمامة قد منع الميرة عن قريش ، فأخذهم الجوع حتى أكلوا الجلود ، فذهب أبو سفيان الى النبى وشكاه ، فأمر الرسول أن يرسل الميرة لهم .

١٠ ــ الاحسان الى الأسير . وقد مدح الله من يطعم الأسير فى قوله : ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » .

١١ ــ ضرورة اعلان الحرب من جانب المسلمين قبل البدء فى أى قتال رغبة فى ألا تكون الحرب وسيلة للخداع والخيانة والختل « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » ، أى فنابذهم فى صراحة واعلان وبيان .

والاسلام يحتم بذل الجهد قبل القتال فى النصيحة ، والدعوة الى الكف عن العدوان والظلم والأذى ، فاذا لم يفد ذلك وجب اعلان الحرب .

١٢ ـ الوفاء بالمعاهدات والعهود فى الحرب والسلم ؛ والاسلام يحث على ذلك فى شدة ، ويتوعد الناقضين للعهود والمواثيق بأشد الوعيد . وقد أشار الى ذلك فى كثير من موضع فى الكتاب الحكيم ، مثل قوله : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » ، وقوله : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » ، وقوله : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » ، وقوله : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ظلم معاهدا أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب من نفسه فانا حجيجه يوم القيامة » .

١٣ ـ قرر الاسلام أن يكون المسلمون جميعا جنودا للاسلام ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم .. الكل مكلف بحمل السلاح لصد العدوان والدعوة لدين الله . وفى الوقت نفسه أعفى غير القادرين منهم من القتال ، مثل المريض والعاجز والشيخ الطاعن فى السن ، ومن على شاكلتهم .

١٤ ـ عدم التظاهر بالقوة والتفاخر بالنصر « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس » .

١٥ ـ التزام العدالة بعد الانتصار « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

١٦ ـ مقصد الاسلام من الحرب اعلاء كلمة الله . وليس هدفه منها الظفر بالغنائم ، بل انه حارب هذه الفكرة « ياأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا » . وقال رجل لرسول الله : رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا ، فقال له الرسول : لا أجر له .

١٧ ـ قرر الاسلام نظام الجزية على غير المسلمين فى البلاد التى يفتحها المسلمون نظير قيامهم بحمايتهم والدفاع عنهم فى الوقت الذى قرر فيه اعفاءهم من القتال فى صفوف المسلمين . وقرر الاسلام سقوط الجزية عنهم اذا اشتركوا مع المسلمين فى القتال ؛ أو اذا لم يتيسر الدفاع عنهم وحمايتهم .

أفبعد هذه المبادىء القوية السامية التى جعلها الاسلام سياجا للحروب يرجف المرجفون باتهام المسلمين باثارة الحروب . وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقة واللطف واللين ؟ .. ألا خسىء هؤلاء الشانئون المرجفون ، وبئس ما يفعلون .

لقد جاء الاسلام فى هذا الباب ــ كما رأينا ــ بأصول عظيمة شامخة تتضاءل بجانبها الأصول والمبادىء الخسيسة التى يصطنعها المدعون بأنهم حماة المدنية فى القرن العشرين .

انى أريد أن أهمس فى آذان هؤلاء بكلمة يسيرة .

أيها القوم ، لم يسمع العالم حتى الآن عن أناس فضلوا قاهريهم على حكوماتهم الوطنية غير ما سمعناه عن الشعوب التى أخضعها العرب .. وذلك لسمو المبادىء التى أتوا بها ، حتى انهم جعلوا الاستعمار سائغا لدى الشعوب التى افتتحوا بلادها . وهذا لعمرى مجد عظيم لاتستطيع ألوف مؤلفة من المرجفين أن يطمسوا سناه الوهاج ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وكلما تقادم عليه العهد ازداد تلألؤا « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره . ولو كره الكافرون »

ولا مراء فى أن الذى دفع هؤلاء الشائنين الى ذلك أحد إمرين أو هما معا :

أولهما : الجهل بحقيقة الدين الاسلامى وسوء فهم المبادىء الاسلامية السامية .

وثانيهما :سوء النية والحقد على الاسلام .

وليس من شك فى أن الاسلام لم يحارب أى لون من ألوان المعرفة على الاجمال . اللهم الا ما كان فيه زيغ أو مروق . وقد حض على طلب العلم بأساليب مختلفة ووسائل متعددة ، وقد أشاد الكتاب الكريم فى مواطن كثيرة الى فضيلة العلم وابراز الهوة الواسعة بين العالم والجاهل .. فشبه العلم بالأنوار والجهل بالظلمات .

وبلغت عناية الاسلام بالعلم أن قرر أن الانسان الذى يخشى الله أكمل خشية انما هو العالم وحده ، قال تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقال جل شأنه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » . وقال : «وقل رب زدنى علما».

ومراد الاسلام من العلم كل مايرفع الجهل ويقف صاحبه على أسرار الوجود ، قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقال : « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

والأحاديث النبوية الشريفة تحث فى شدة على طلب العلم ، ومن ذلك قول النبى الكريم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وقوله عليه السلام « يأتى على أمتى زمان يصبح الرجل فيه مؤمنا ويمسى كافرا الا من عصمه الله بالعلم » ، وقوله « اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك » ، وقوله « قليل العلم خير من كثير العبادة » .. الى غير ذلك من الأحاديث الشريفة التى لا يتسع المقام لذكرها .

وكما حث النبى على تحصيل العلم نراه ينهى فى شدة عن كتمانه ، ويهدد أعنف تهديد من يكتمونه ولا يسعون فى نشره ، ويكفينى أن أسوق هذا الحديث « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » .

وقد استعمل النبى عليه السلام من ناحية أخرى أسلوب الترغيب لمن يجود بعلمه ولا يألو جهدا فى بذله لكل من هو فى حاجة اليه فقال : ساعة عالم متكىء على فراشه ينظر فى علمه للناس خير من عبادة العابد ستين عاما » . وقال : « أجودكم بعدى رجل علم علما فنشر علمه ، انه يبعث يوم القيامة أمة وحده » . وقصة النبى مع أسرى المشركين فى غزوة بدر معروفة ، فقد شرط على من يعرف القراءة والكتابة من هؤلاء الأسرى أن يعلم عشرة من أبناء الأنصار مقابل فك اساره .

وأحاديث النبى عليه السلام وأعماله فى الحض على التعلم والتعليم فياضة كثيرة . ونحن نؤثر الاكتفاء بهذا القدر لدحض

حجة هؤلاء الذين يتجنون على الاسلام ، زاعمين ــ قاتلهم الله ــ أنه حارب العلم أو وضع العقبات أمام ناشدى المعرفة .

وقد أطلق الدين الاسلامى الفكر من عقاله ، ودعاه الى التدبر والتبصر والتفكير فى السماء والأرض ، وما فيهما من نجوم وشموس وأقمار ونبات وحيوان « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » ، وصدق العلى الكبير حين قال : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .. يدعو الحكيم تبارك وتعالى أولى الألباب ليتبينوا ما فى خلق السموات والأرض ، وما فى اختلاف الليل والنهار من آيات بينات على بالغ قدرته وعظيم تدبيره .

وهذه الدعوة هى الأساس الأول لمختلف العلوم والفنون ، حيث ينطلق الفكر لاستخراج هذه الآيات . فالاسلام ينبوع المعارف ومنشئها الأول فى وقت كان العالم هائما فى وديان الضلالة ومتاهة الجهالة ، أنظر الى قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » تره يدعوك الى النظر فى جلائل هذه المخلوقات لتستخلص منها العظة والعبره .. فهو يدعوك الى النظر فى خلق السموات والأرض . والى اختلاف الليل والنهار . ثم النظر فى هذه البحار

التى تجرى فيها الفلك بما ينفع الناس ، ومالها من دور تلعبه فى حياة الكائنات الأرضية . ثم عقب ذلك بما أنزل من السماء من ماء ليدعوك الى بحث علاقة هذه البحار بهذا الماء ، وهل بينهما علاقة السبب بالمسبب .

وهو يدعوك الى النظر فى الزرع ، وكيف تحيا الأرض بعد موتهـا بالماء الذى ينزل من السماء ، ويدعوك الى النظـر فى ارتباط هذه الأرض وحياتها بالدواب التى بثها فيها ، ويدعوك الى النظر فى تصريف الرياح فى كل فصل من فصـول السنة ، وتأثير ذلك على الزرع ، حتى يكون لكل زراعة وقتهـا المـلائم لها .

فأى فكر سلىم بتدبر هذه الآيات الكريمة ثم لا يستخلص ما فيها من أسرار مكنونة وعلوم تنفع النـاس وترتفع الى خيـر مستوى .

ويقول جـل شأنه : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر انمـا أنت مذكر ، لست عليهـم بمسيطر » . ولأختر واحدة فقط من هذه العجائب التى أوجب الله تعالى النظر فيها ، وهى الابل . والابل من أعجب ما برأ الله من مخلوقات ، فهى سـفينة الصحراء ، وهى أصبر الحيوانات قاطبة على الجوع والعطش . وقد اقتضت قدرة الله العجيبة أن يكون لها معدتان ، احداهما كالخزان نخزن فيه المـاء أياما فلا

يتغير لونه أو طعمه ولا ينقص وزنه . وبها قطع الغزاة المسلمون البيد الشاسعة مع جحافلهم الجرارة ، وفتحوا البلاد ، وثلوا العروش ، ورفعوا راية الاسلام خفاقة فى كل بقعة وطئتها أقدمهم .

وانظر الى الجمل وهو يستنيخ ، ثم وهو ينهض ، فيمد عنقه ويرتفع بحمله ، فاذا ضربنا طول ما مده من عنقه فى زنة رأسه علمنا وزن الثقل الذى يحمله تماما .. وذلك هو المعروف بنظرية الميزان ذى الرمانة .

فهل رأيت أبدع من ذلك خلقا ؟ تبارك الله أحسن الخالقين !! والاسلام يدعو الى التفكير القويم والى تحرير العقل من أغلال التقاليد ، ولذلك نراه ينهى عن تصديق الأوهام والاكترات للظنون ، ويبين تبعة تحميل العقل اعتقاد ما لم يصل اليه العلم فقال : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

ولما كان التقليد والخضوع للمعتقدات الموروثة من أشد العوامل فى صرف الناس عن التفكير والنظر والاستقلال فى تقدير الأمور ، فقد حمل الاسلام عليهما حملة عنيفة ، اذ يقول جل وعلا : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ويقول: «انهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون » ويقول فى تصوير حال المقلدين ، مبينا أنه لا يقبل منهم عذر يوم

الدين « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فىالنار كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتىإذا اداركوا فيها جميعا (أى تلاحقوا فيها) قالت أخراهم لأولاهم ربنا هـؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون»

وبعد أن حرر الاسلام العقل وحرم التقليد على النحو الذى رأينا عاد فقرر أنه لابد لكل معتقد من المعتقدات أن يقوم على دليل قويم فقـال : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـادقين » . ومثل هذه الآية كثير فى القرآن الكريم .

ومما اختص به الاسلام من اكبار العقل والعلم وجرى عليه المسلمون فى جميع أدوارهم واعتبروه أصلا من أصول دينهم ، وجوب تأويل نص الكتاب ان أوهم ظاهر ألفاظه مخالفته لهما ، مثال ذلك ماجاء فى الكتاب الحكيم « كل شىء هالك الا وجهه» و « يد الله فوق أيديهم » و « والأرض بعـد ذلك دحاها » ولا يعقل أن يكون لله وجه أو يد ، على خلاف ما يقول المشبهة، وقد أثبت العلم أن الأرض كروية . لذا عمد المسلمون اتبـاعا للأصل المقرر فى دينهم ـ الى تأويل هذه الألفاظ . فأولوا الوجه بالذات ، واليد بالرعاية ، وقالوا ان المراد بالدحو البسط فيمـا يراه الرائى فقط ، لا فى الشكل الحقيقى للأرض .

بهذه الرخصة الجليلة لايقوم تعارض بين الكتاب والعلم ، ولا بين الـكتاب والعقل ، وهى أول ما حدث من تاريخ النوع البشرى من تآخى الدين والعلم. ولذلك بحث المسلمون أحرارا فى

جميع نواحي العلم دون أن يشعروا بتعارض بين الدين والمعرفة. ولن يشعروا بشيء من هذا التعارض ما دامت هـذه هي فاعدة الاسلام الأصولية .

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين بدأوا يطلبون العلم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من مظانه، ولم يتحرجوا عن أخـذ كل ما صـادفوه لدى غيرهم منـه . ومن الخير أن أسوق فى هذا المقام بعض عبارات لعالم منصف من علماء الغرب هو الدكتور « درابر Draper » الأستاذ بجامعة هارفارد بنيويورك من كتابه « التنازع بين الدين والعلم » ، قال : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان من الزمان حتى كانوا قد استأنسوا بجميـع الـكتب العلمية اليونانيـة وقدروها قـدرها الصحيح » .. الى أن قال : « كان شـعار المسلمين فى بحوثهم الأسـلوب التجريبى ، وكانوا يعتبـرون الهندسة والعلوم الرياضية من معدات علم المنطق والقـارىء لـكتبهم الـكثيرة فى الميـكانيكا والأيدروستاتيك ونظـرياب الضوء والأبصار يلاحظ أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والمشاهدة بوساطة الآلات . وهذا هو الذى أدى بهم الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لكثير من آلات التقطير والتصعيد والصهر .. الخ . وهذا بعينه

هو الذى جعلهم يستعملون فى دراساتهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاصطرلاب .. الخ » .

كل هذا والدين فى أوج سلطانه على العقول ، فلو كان فيه شىء من مجافاة العلم أو معارضة التطور والرقى العقلى لظهرت آثاره جلية واضحة فى أيامه الأولى .

وأحب أن أقول ان ذلك الاقبـال على العلم حـدث من المسلمين فى عصـورهم الأولى ، لا لأن الاسـلام يسـمح به ولا يعارضه ، ولكن لأن أصوله تؤدى اليـه حتما ، وتقتضيه اقتضاء طبيعيا .

وهذا هو السر فى انتقال الأمة العربية كلها من حال متهافتة هينة الى حال تولت فيها زعامة العـالم أجمع فى جميع مجالات النشاط العقلى والعملى فى مدة لاتتجاوز مائتى سنة .

مفهوم الدولة فى الإسلام

اذا أمعنا النظر فى منهاج الاسلام فى الحكم أدركنا أن الغاية الكبرى من قيام الدولة الاسلامية هى ايجاد الجهاز السياسى الذى يحقق وحدة الأمة الاسلامية وتعاون أفرادها : يقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون » .

وهاتان الآيتان توضحان أن المجتمع الاسلامى ليس غاية فى ذاته ، ولكنه وسيلة الى غاية كبرى ، هى ايجاد أمة تقف نفسها على الخير والحق والعدل ، أو بمعنى آخر تعمل على خلق بيئة اجتماعية تتيح لأفرادها ــ بقدر الامكان ــ أن يحيوا حياة روحية ومادية على النحو الذى رسمه قانون الله الفطرى ، وهو الاسلام .

وقد وضع الاسلام لتحقيق هذا الهدف العظيم شرطا هاما هو وجود أخوة قوية تربط بين أفراد المجتمع ، وتوجههم نحو الغاية المنشودة ، وقد أرسى الله قواعدها بقوله : « انما المؤمنون اخوة « وأكد الرسول عليه السلام هذه الضرورة فى أحاديث كثيرة انطلق بها لسانه الكريم فى شتى المناسبات ، كقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدبعضه بعضا» ، وقوله : «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » ، وقوله : مثل المسلم لأخيه المسلم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، وقوله : من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

وليس الأساس العاطفى الذى تقوم عليه هذه الأخوة هو الولاء المطلق للقبلة أو نزعة التفاخر بالآباء والأجداد . فقد نهى الرسول عن ذلك وذمه بقوله : لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، انما هم ليكونن أهون على الله من الجعل (١) » وقوله : «ان الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء» وانما تقوم هذه الأخوة على أساس من التعاطف الانسانى ، والشعور بالمساواه ، ووحدة العقيدة ، والايمان بأن الفرد لبنة فى بناء المجتمع الاسلامى .

---

(١) الجعل : نوع من الخنافس ، وهو معروف فى الصحراء العربيه . وقد روى الترمذى وابو داود عن ابى هريره .

ولهذا نرى النبى صلى الله عليه وسلم ينهى عن العصبية فى ألفاظ صريحة قاطعة : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . وعندما سأله أحد الصحابة عن معنى « العصبية » التى تخرج المرء من دائرة الاسلام على هذه الصورة أجاب : أن تعين قومك على الظلم » (١) .

وقد بين الرسول عليه السلام أن حب الرجل قومه ليس « عصبية » الا اذا أدى هذا الحب الى ظلم الآخرين ، ولهذا يقول : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، فقال رجل : « يارسول الله ! أنصره مظلوما ، فكيف أنصره ظالما» فقال: «تمنعه عن الظلم فذلك نصرك اياه » (٢) .

وعلى ذلك فان الغاية التى تستهدفها رسالة الاسلام الاجتماعية هى دفع الظلم عن الناس واقامة معالم العدل فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

فالقيم الأخلاقية للمجتمع الاسلامى تقوم على هذه القاعدة الشاملة : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وعلى هذا المثل الأعلى للعدالة — مع المسلمين ومع غير المسلمين — يتوقف قيام الدولة الاسلامية . فاذا تنكبت جادة هذا المبدأ القويم

---

(٢) رواه ابو داود عن واثلة بن الاسقع .
(٣) رواه البخارى ومسلم عن انس .

انهارت وأصابها الوهن والاضمحلال . وهذه الدولة ليست فى الحقيقة سوى الجهاز السياسى لتحقيق هذا المثل الأعلى .

ان مبررات قيام الدولة فى الاسلام تنحصر فى أن تجعل من شريعة الاسلام القانون المهيمن على شئون الحيـاة كى يسـود الحق والعدل والخير ، وتنظم العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين النـاس بحيث يتـاح لكل فرد أن يحظى بالحرية والأمن والـكرامة . وبذلك تتحقق الأهداف الأخلاقية التى دعا اليهـا الاسلام . لا فى مجال العقيدة فحسب ، ولكن فى مجال الحيـاة العملية أيضا . كما تتحقق لرعايا الدولة غير المسلمين كل مقومات الأمان الفعلى والحرية التامة فى عقائدهم وطقوسهم الدينية ، الى جانب حقوقهم الاجتماعية الأخرى .

فاذا حققت الدولة هذه الأهداف كانت خليقة بأن تتصف بأنها اسلامية حقا ، وأنها « خليفة الله فى الأرض » ، وكان لهـا أن تكتسب ــ من وجهة النظر الشرعية ــ صفتها القانونية ، أى بأن يكون لها على الناس حق الطاعة والولاء على أساس هـذا النص القرآنى القـاطع : « يأيهـا الذين آمنـوا أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وفى هذه العبارة الموجزة يضع القرآن الكريم عدة مبادىء عامة تتصل بطبيعة الدولة الاسلامية ، هى :

١ ــ ان أول واجبات الدولة تنفيذ الأحكام الشرعية ، وقد أكد ذلك الآية الكريمة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

وعلى هذا فان الدولة لايمكن أن تعتبر اسلامية الا اذا كانت أحكام الشريعة فى الأمور ذات الطابع العام هى التى يجب أن تشكل القاعدة التى لايجوز أن تشذ عنها كافة الاجراءات التى تصدر عن الدولة .

٢ ـ وهذه الأحكام الشرعية التى أشرنا اليها هى أساس بنيان الدولة والمهيمنة على عملها ، ولكنها لاتستطيع بطبيعتها الاجمالية المختصرة أن تمدنا بكل ما قد نحتاج اليه لادارة شئون الدولة ، ولهذا لابد لنا من أن نضيف بأنفسنا القوانين التى تساير زماننا ومقتضيات حياتنا . وقد أباح لنا الاسلام ذلك على شريطة ألا نبيح لأنفسنا سن القوانين التى تتعارض مع روح الشريعة .. وقد حذرنا الله من ذلك فقال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

٣ ـ يلاحظ أن الأمر القرآنى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » يعقبه فى الحال « وأولى الأمر منكم » . أى من جماعة المسلمين . وهذا يعنى أن فرض أية سلطة على المسلمين من خارج جماعتهم لايجعل لها عليهم حق الطاعة بأية حال من الأحوال . بينما تعتبر طاعة الحكومة الاسلامية التى جاءت بالطريق الشرعى واجبا دينيا .

ان طاعة الحكومة التزام من أهم التزامات الرعية نحو الدولة ، وهذا مبدأ أساسى معترف به فى كل المجتمعات

المتدينة ، بيد أنه من الأهمية بمكان أن نعلم أن هذه الطاعة فى الدولة الاسلامية تظل واجبا ما لم تبح الحكومة لنفسها أن تحلل ما حرمته الشريعة ، أو تحرم ما حللته . ففى مثل هذه الحالة تخلع طاعتها من أعناق الأمة كما نص على ذلك الحديث الشريف « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (١) .

ان طاعة المجتمع الاسلامى « لأولى الأمر منكم » مشروطة بشرط جوهرى هو طاعة أولى الأمر لله ورسوله . ولهذا كان من واجب المجتمع فى الدول الراقية الاشراف على نشاط الحكومة ، وأن يمنحها الثقة اذا سلكت الطريق القويم ، وأن يسحب منها هذه الثقة اذا تنكبت جادة الحق والصواب .

وعلى هذا فان رضا الشعب عن الحكومة وعن تصرفاتها يعتبر من أهم العناصر التى تستند اليها الدولة الاسلامية فى قيامها .

٤ ـ لاشك فى أن ضرورة الحصول على رضا الشعب تفترض سلفا أن تأتى الحكومة الى الوجود على أساس الاختيار الحر من قبله . وهذه دلالة أخرى من الدلائل التى تشير اليها العبارة القرآنية بلفظ « منكم » .. انها تشير بذلك الى الأمة ككل ، وليس الى جماعة أو طبقة معينة .

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر .

وينبثق عن هذا المعنى أنه لكى تتحقق أهداف الشريعة الاسلامية فان رئاسة الدولة لابد وأن تأتى عن طريق الانتخاب ، فان تولى السلطة عن غير طريق الانتخاب يجعل طاعة الأمة غير ملزمة ، ذلك بأن هذا الأسلوب فى الوصول الى منصة الحكم ان هو الا لون من ألوان فرض السلطة على المسلمين من خارج جماعتهم .

وهنا يبرز لنا سؤال ـ يبدو طريفا من وجهة نظر الفلسفة السياسية ـ عن المصدر الذى تستمد منه الدولة الاسلامية صفة السيادة. وهو سؤال ليس نظريا فى الواقع كما قد يبدو للوهلة الأولى ، وقد لايفكر فيه الرجل العادى مادام النظام السياسى القائم واجراءات الدولة الادارية تيسر له أساليب معيشته وتحقق له التقدم الاقتصادى .

بيد أن الباحث أو المؤرخ لايمكنه أن يتجاهل أن القيم المعنوية التى ينسبها المواطنون لدولتهم ـ ومنها مصدر سيادتها ـ تصبح مع الزمن ذات أثر حاسم بالنسبة لاستمرار سيطرتها الروحية . وعلى ذلك تكون فى النهاية ذات نتائج بعيدة المدى فى السلوك الاجتماعى العام .

ولا مراء فى أى أى نظام سياسى لا يحقق غاياته ـ مهما بلغ من السمو ـ من تلقاء نفسه .. ذلك أن صلاحيته الاجتماعية ترتكز فى النهاية على المضامين الروحية التى يحتوى عليها هذا النظام .

وعلى ذلك نستطيع أن نرد أسباب افتقار المسلمين طوال قرون عديدة للنظام الاجتماعى والروح الوطنيــة الى اضطراب مفاهيمهم بالنسبة للقاعدة الروحية والفكرية التى ترتكز عليهــا الدولة وتستمد منها سيادتها . وربما يفسر لنا هذا الاضطراب السبب فى السهولة التى استسلم بها المســلمون خــلال أحقاب طويلة من الزمن لكل ألوان الاضطهاد والعسف على أيدى حكام مستبدين . ولعل أصــدق مثل على ذلك ماكان يلقــاه الشعب اليمنى ابان حكم الأئمة من أسرة حميد الدين من ضروب الجور والضغط والاستبداد والخداع .

ومن حسن الحظ أن الطبقات المثقفــة فى كثير من الدول الاسلامية قد بدأت تطالب فى الحاح بأن يكون « الشعب » هو المصدر الوحيد للسلطة فى الدولة ، بحيث تكون ارادته وحدها هى العامل الحاسم فى تكوين أجهزة الدواة جميعا ، وفى ميــدان التشريع كذلك ، وبذلك تكون له السيادة المطلقة على كل شىء فى الدولة . وهذا هو ما يحقق قول الرسول الكريم : « ان الله لايجمع أمتى على ضلالة » (١) . وهذا الحديث الشريف يشبه الى حد كبير ما كان ينادى به الرومان الأقدمون من أن «صوت الشعب هو صوت الاله "Vox Populi. Vox Die (٢) .

وخير مثل لهــذا النظام الســياسى السوى « الجمهورية العربية المتحدة » ، فالاتحاد الاشتراكى يشرف على جميع أجهزة

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر .

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam. V. 1. P. 194.

الدولة وهو يمثل جميع طبقات الشعب . هذا الى جانب مجلس الأمة الذى يمثل نصف أعداده على الأقل طبقتى الفلاحين والعمال وبذلك لايبرم أمر من الأمور الا أخذ حظه الموفور من الدراسة والتمحيص .

ولكن يجب ألا نغيب عن البال أن سلطة المجتمع الاسلامى ليست سوى سلطة بالوكالة ، حبلها بيد الله . فالمصدر الحقيقى للسيادة فى الدولة الاسلامية هو المشيئة الالهية كما جاء فى الشريعة ، والله تعالى يقول : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

فالدولة الاسلامية انما تستمد سيادتها من قبل الله ، ولو أنها تقوم نتيجة لارادة الشعب . فاذا سارت فى الطريق السوى الذى رسمه الاسلام كان لها على رعاياها حق الطاعة والولاء كما يتبين لنا من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ؛ ومن يعص الأمير فقد عصانى » (١) .

وقد كان من سماحة الاسلام وأصالته ، منطقه أن اشترط أن يكون رئيس الدولة مسلما لديه من المزايا ما يخول له أن يوم على المسلمين بغض النظر عن اعتبارات الجنس أو القبيلة أو المكانة الاجتماعية .. وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

« اسمعوا وأطيعوا وان أمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » (١) . وهذا مستمد من قول الله عز وجل : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولم تضع الشريعة شروطا أخرى لمن يختار لشغل هذا المنصب ، ولم تضع نظاما خاصا لانتخابه ، ولم تحدد هيئة الناخبين ، كما لم تنص على مدة الامارة . وعلى هذا فمن الجائز أن تحدد بعدد من السنوات ، ويكون للامير الحق فى اعادة ترشيح نفسه لمنصب الرئاسة . ومن الجائز كذلك أن يحدد بقاء الأمير فى منصبه الى عمر معين على شريطة أن يكون حكمه مدة امارته قائما على العدل والكفاية والاخلاص .

كما لاضير فى أن تكون مدة الامارة مدى الحياة ، فاذا تنكب الأمير جادة الحق والخير كان عليه أن يتنحى عن منصبه وحل عزله . ويعفى من منصبه كذلك اذا ما ثبت عجزه عن ادارة شئون الدولة بسبب اعتلال فى صحته أو خلل فى قواه العقلية مثلا .

كل هذه التفاصيل وأمثالها يصطنعها المجتمع نفسه وفق ما يخدم مصالحه ويحقق حاجات زمانه .

ومن خلال هذا المجال الرحب لسن تفاصيل الدستور تبدو لنا مرة أخرى تلك المرونة السامية التى هى من خصائص النظام السياسى فى الاسلام .

---

(١) رواه البخارى عن انس .

وهكذا رأينا أن شريعتنا الغـراء قد تعمـدت الا تعـرض لتفـاصيل التشريعات الخاصـة بحاجاتنا الدسـتورية المتنوعة المتغيرة مع الزمن

والواقع أن حاجتنا الى سن القوانين الجارية المناسبة لـكل عصر قد كفلتها الشريعة الاسلامية بسعة افقها وشدة مرونتها واهتمامها بالمسائل العامة دون التفاصيل والفروع . ولهذا ترك الشـارع للأمة حق سن القوانين الملائمة لمقتضيـات الزمن عن طريق الاجتهاد ، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع روح الشريعة.

ومما لا شك فيه أنه فى المسائل التى لها مسـاس مباشر بالجانب العـام من حياتنا لايمكن أن يترك سن تلك القـوانين الاجتهادية للأفراد يعالجه كل على هواه ، بل لابد أن ينبثق ذلك عن جمـاعة من المتفقهين فى الدين ، معروفين بالتقوى وسـداد الرأى وثقوب الفكر ، تـكل اليهم الأمة القيام بهـذه المهمة . ولا بأس من أن يستهدى المشرعون باجتهاد الفقهاء المتقدمين فى أية مسألة تعرض لهم . وبذلك يمكن اسـتعراض أى موضوع يبحث من زوايا مختلفة .

وقد أشار الله تعالى الى ذلك اشارة حاسمة بقوله فى سورة الشورى « وأمرهم شورى بينهم » . وهذا النص القرآنى يجب

اعتباره المادة الأساسية الفعالة فى التفكير الاسلامى بصدد مسألة ادارة الدولة . وليس من العسير علينا أن ندرك أن هــذا النص يمتد أثره بحيث يشمل كل صــغيرة وكبيرة من دقائق حيــاتنا السياسية . وهو من الوضوح فى معناه والاطلاق فى لفظه بحيث أن أية محاولة للتعسف فى تأويله ستبوء بالاخفاق .

ان كلمة «أمر» التى وردت فى النص تشير الى كافة الأمور ذات الطابع العام ، ومنها بطبيعة الحال القوانين التى تنظم أمور الدولة . ومهمة سن هــذه القوانين لابد أن تستند الى مجلس شورى تختاره الأمة من دوى الألبــاب من علماء الدين الأفذاذ الأتقيــاء .

والشورى دعامة قوية من الدعائم التى قامت عليها الدولة فى الاسلام . وليس من الميسور ، بل ليس من المعقول أن يجتمع جميع أفراد الأمة فى صعيد واحد ليتشاوروا فى أمورهم ، ولذا كان عليهم أن ينتخبوا من يمثلهم فى مجلس محدود العدد يتولى هذه المهمة .

ولا يمكن أن يتم تعرف رأى الأمة وتحقيق مبدأ الشورى بغير طريق الانتخاب العام ، اذ أنها الوسيلة الوحيــدة أن نظهر عن طريقها مزايا المرشحين ، ويترك بعدها للشعب حق الاختيار .

ولم تتعرض الشريعة لطريقة الانتخاب ، وهل يكون مباشرا أو غير مبــاشر ، وهل يقوم على أســاس التقسيم الاقليمى أو

النسبى ، وما الى ذلك من التفاصيل .. كل ذلك تركته الشريعة لقرار الأمة ينظمه كيف تشاء .

وهناك أمر خليق بالذكر فى هذا المجال . وقد فطن اليه الرسول الكريم ، وهو أنه أوجب على كل من يتقدم للمناصب النيابية ألا يسأل الوظيفة أو يتصيد أصوات الناخبين .. يقول عليه السلام : « لاتسأل الامارة ، فانك ان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها » (١) .

وفى ضوء تعاليم الاسلام يمكن القول بأن رسول الله قد قصد دون شك انه لابد من عون الله ورعايته لكى يقوم الانسان بأداء عمله . وهذا يعنى أن تخلى العناية الالهية عن المرء قمين بأن يجعل عمله بوارا وجهده خسارا مهما بلغت درجة كفايته . ولكى يجعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أكثر وضوحا أبى أن يعطى انسانا وظيفة سألها لنفسه..فقد سأله أحد الصحابة أن يبعثه واليا على أحد الأمصار فأجابه قائلا : « انا والله لانولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه » (٢) .

٤

وقد ذكرنا أنه لزام أن يكون بجانب رئيس الدولة مجلس منتخب للشورى ، ويناط اليه القيام بسن القوانين للمسائل ذات

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الرحمن بن سمرة .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى .

الطابع العام ، ولاسيما الأمور التى لم توضع لها أحكام معينة فى نصوص القرآن والسنة .

ولكن من غير المحتمل أبدا أن تتفق وجهات نظر أعضاء المجلس اتفاقا تاما فى كل مسألة تعرض عليهم . ولذلك كان من غير المحتمل أيضا أن تصدر قراراتهم باجماع الآراء بالنسبة للمشاكل التى تحتاج مواجهتها الى سن قوانين جديدة .

واختلاف الآراء بين الناس أمر طبيعى ، اذ لايمكن بأية حال من الأحوال ألا يتأثر التفكير البشرى بالأمزجة والعادات والبيئة الاجتماعية والتجارب السابقة التى تعرض لها الفكر .. ذلك بأن هذه العوامل جميعا تتعاون معا فتكون ما نسميه « بالشخصية البشرية » المتميزة بخصائص فردية .

والواقع أن الاختلاف فى الرأى يؤدى الى التقدم فى مضمار الحياة ، اذ أنه من خلال الاحتكاك الناجم عن صراع الأفكار ، ومن خلال المعارك العقلية التى تخوضها الآراء المتباينة تتضح الدروب المتعددة التى تفضى حتما الى الحل السديد المستقيم . ولعل هذا ما عناه سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام بقوله : « اختلاف علماء أمتى رحمة » (١) .

اذن فمن المتوقع ألا تحظى قرارات هذه المجالس الشورية فى الدولة الاسلامية باتفاق اجماعى عليها ــ شأنها فى ذلك شأن كافة المجالس التشريعية فى العالم . ولهذا فان علينا أن نرضى بصدورها بأغلبية الأصوات .

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ص ١٥٢ .

ولا بأس فى أن تكون الأغلبية البسيطة حاسمة فى القرارات التى تتناول مسائل عادية . على أنه من الأفضل أن تشترط أغلبية الثلثين فى الأمور ذات الأهميــة الخاصة كالتصويت على اقتراح باسقاط الحكومة ، أو مواد الدستور الجديد ، أو تعديل الدستور ، أو اعلان الحرب ، أو ماشابه ذلك من الأمور .

ولــكن كثيرا من المسلمين فى عصرنا يرفضون ــ بسبب الفشل الذى تعانيه أغلب «الديموقراطيات» الحديثة فى الغرب ــ أن تسيطر هذه العملية الحسابية القائمة على مجرد عد الأصوات على النشاط وسن القوانين فى الدولة الاســلامية ، وحجتهم فى ذلك أن تأييد الأكثرية لاجراء قانونى معين لايعنى دائما أن هذا الاجراء اجراء صالح . فمن الممكن جدا أن تقع الأكثرية فى الخطأ برغم أنها أكثرية مخلصة فى نواياها ، بينما تكون الأقلية هى التى على صواب .

والمعروف أن العقل البشرى ليس معصوما من الزلل ، وأن الناس لايستجيبون دائما لنداء الخير والحق والصواب ، وتاريخ العالم يفيض بالأحكام الخاطئة التى تردت فيها أكثريات أنانية أو مخدوعة برغم تحذير أقليات بصيرة حكيمة لها .

ولــكننا ــ مع ذلك ــ لانستطيع أن نقول انه من اليسير أن نجد بديلا لمبدأ الأخذ بأغلبية الأصوات فى الهيئات التشريعية. وقصارى ما نقدر أن نقوله هو أنه اذا ناقش جمع من النــاس قوامه أفراد معقولون مســألة معينة فان من المتوقع أن تصــل

أغلبيتهم فى النهـاية الى قرار صـائب أو أقرب مايكون الى الصواب .

ومن أجل هـذا حض الرسول الكريم على اتبـاع رأى الأغلبيـة فقال : « اتبعوا السواد الأعظم (١) » . وقال عليـه الصلاة والسلام : « عليكم بالجماعة والعامة (٢) » .

والواقع أن العقل البشرى لم يستطع حتى الآن أن يبتكر وسيلة يصل بها الى اتفاق حول مسألة من المسائل خيرا من مبدأ الأخذ برأى الأغلبية . ولاشك أن الأكثرية قد تخطىء ، ولـكن لاشك أيضا أن الأقلية قد تخطىء كذلك . والحقيقة التى لامراء فيها أن العقل البشرى بما فطر عليه من نقص وافتقار الى الكمال قد جعل الوقوع فى الخطأ أمرا لايمكن تجنبه فى الحياة البشرية.

وعلى ذلك فانه ليس لنا الا أن نتعلم عن طريق الأخطـاء والتجارب ، وما يتلو الوقوع فى الخطأ من رجوع الى الصواب وتصحيح للأخطاء .

وقرار الأغلبية يعتبر ملزما لكل فرد من أفراد الأمة ، حتى الأغلبية التى صوتت ضده . ولهذا قال الرسول الكريم : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار (٣) » ، وقال عليه الصـلاة والسلام : «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع الاسلام من عنقه(٤)»

(١) رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمر .
(٢) رواه احمد بن حنبل عن معاذ بن جبل .
(٣) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر .
(٤) رواه ابو داود فى سننه وابن حنبل فى مسنده عن ابى ذر .

وبناء على ذلك فان الحكومة اذا ما حققت الغـــايات التى ألقتها الشريعة على كاهلها فان لها الحق المطلق فى الحصول على ولاء المواطنين جميعا ، ولها عليهم حق « السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره » كما يقول الرسول عليه السلام .

وعلى المسلمين أن يقفوا وراء الحكومة الشرعية يؤيدونها ويؤازرونها ويضحون من أجل ذلك بكل رغائبهم وبكل ما يملكون من متاع الدنيا ، بل وبحياتهم أيضا « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

ويترتب عـــلى ذلك أن الحكومة التى تحكم باســـم الله ورسوله ، وتلتزم بأوامر الشريعة لها الحق فى أن تضع يدها على كل ما يملكه الشعب فى أى وقت تتطلب فيه مصلحة الأمة وسلامة البلاد مثل هـــذا الاجراء . أى أن للحكومة الحق فى أن تفرض ــ فضلا عن الزكاة التى نصت عليها الشريعة ــ ضرائب اضافية الى أى حد تراه ضروريا لصالح الشعب ، وأن تفرض كلما دعت الحاجة الى ذلك قيودا على الملكية الشخصية كبعض العقارات أو وسائل الانتاج أو مصادر الثروات الطبيعية بقصد اخضاعها لاشراف الدولة واتخاذها كمنافع عامة . وكذلك للحكومة الحق فى أن تفرض التجنيد الاجبارى لجميع الأفراد اللائقين للخدمة العسكرية للدفاع عن الوطن عندما تقتضى الضرورة ذلك .

أثر العرب في العلوم والآداب

كان العرب فى العصور الوسطى ابان مجدهم سادة العالم؛ ينشرون العلم والعدل والخير فى جميع الأصقاع التى هبطوها. وكان أهل الغرب آنذاك يتخبطون فى دياجير الجهـالة الجهلاء والضلالة العمياء والشر المستطير .

ولقد حفظ أجدادنا تراث الأقدمين من هند وفرس ويونان، وزادوا عليه وجودوه . ثم انتقل بنوره وخيره الى العالم الآخر، وصدق العلى الكبير حين قال : «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

ففى عصر العرب الذهبى سكت العالم الأول ، عالم الهند والفرس واليونان ، ونام فى اغفاءة طويلة لم يستيقظ منها .

ويخطىء كثير مـن المؤرخين الذين يعتقـدون أن العصر العباسى هو بداية عصر النهضة بالعلم عند العرب ، والواقع ان خيوط هذا الفجر المضىء بدأت تلمع منذ بدء الدعوة الاسلامية. فالقرآن الكريم يكرم العلماء ويرفعهم درجات بقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ، وقوله : « يرفع الله

الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . ويحث نبى الاسلام على طلب العلم فيقول : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، ويقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

وقد أخذت هذه الدعوة سبيلها فى العهد الأموى ، حتى كان من هؤلاء كثير ممن نقلوا العلوم الى العربية ، وأتقنوها ، ونشروا ما وصلوا اليه قولا وعملا

فهذا خالد بن يزيد بن معاوية يكتب الى أبيه — وكان قد سافر لطلب العلم وبخاصة الكيمياء — يبشره بنجاح سعيهوبلوغ أربه بقصيدة لطيفة يقول فيها :

أيا راكبا نحو الشآم عشيه
يؤم دمشقا قف تحمل كتابيا

وبلغ يزيدا حين يتلو رسالتى
وقل : خالد قد نال ما كان راجيا

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة
وحزتهما من بعد طول عنائيا (١)

ويقصد بالشمس الذهب ، وبالبدر الفضة ، وكانت صناعة لكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة : الذهب والفضة .

(١) المستطرف للابشيهى ٢/٢٠٧ .

ثم كان العصر العباسى ، عصر النقل والترجمة ، فأنشئت من أجلهما الدواوين واستقدم العلماء ، وأغدقت عليهم الأموال، ونالوا الحظوة والتكريم لدى الخلفاء ، ولاسيما المأمون، فأقبلوا على العلوم الأجنبية يترجمونها الى العربيـــة عن اليونانيـــة والسريانية والفارسية والهندية .

ولم يكد يستقر الأمر بانتهـــاء دور النقل والترجمة حتى كانت حضارة العرب قد تفتحت براعمها ، واخضرت أغصانها ، وأينعت ثمارها ، وتضوع عبيرها ، يملأ العالم العربى والاسلامى لينتشر منه بعدئذ الى العالم الغربى ، فينير عقولا طمستها ظلمة الجهل ، ويفتح قلوبا كانت عليها أقفالها . ويقول العالم «دوزى» فى كتابه « تاريخ المسلمين بأسبانيا » : لولا العرب لتأخر عصر النهضة فى أوربا عدة قرون (١) .

ولقد لمع العرب فى جميع الميادين العلمية . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والأدباء والفقهاء يقومون بأدوارهم فى نهضـــة العرب الروحية والنفسية والخلقية كان العلماء فى كل الميـــادين يقومون بقسطهم من البحث والنقل والتجويد . لم يدعوا بابا الا طرقوه ان لم يكونوا قد فتحوا فى العلم أبوابا جديدة ويقول المستشرق « ليفى بروفنسال » : ان العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر . والواقع أن كثيرا من النظريات المتأخرة جاءت أسسهـــا الأولى على ألسنة علماء العـــرب وذكروها فى

Dozy : Histoire des Musulmans d'Epagne. P. 315

مصنفاتهم (١) » وقد سمعت من بعض علماء الرياضيات عندنا أن هناك تشابها واضحا بين نظرية « أينشتاين » فى الجاذبية وآراء الفارابى .. فهل كان هذا من توارد الخواطر ؟ ليس ببعيد أن يكون القبس الذى أشع من علوم العرب قد مهد الطريق أمام المتأخرين ، فالتقت خواطر « أينشتاين » بخواطر الفارابى ، مثلما التقت آراء « دانتى » شاعر ايطاليا العظيم فى رواية « الجحيم » بفلسفة أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران . وان الدهشة لتعقد ألسنتنا فى شىء غير قليل من الاجلال والاكبار حينما نسمع الفارابى يتنبأ بصعود الانسان الى الفضاء فيقول :

محيط السموات أولى بنا فلم ذا التزاحم فى المركز

وقد كن هذا العالم العربى العظيم فيلسوفا وطبيبا وموسيقيا . وكان بارعا فى هذه الفنون كلها . وقد بدأ حياته بداية بسيطة متواضعة ، اذ بدأها بقراءة شىء من بضاعةالوراقين على ضوء قناديل الطريق ، ثم كان ماكان من أمره ، فعظم شأنه وذاع صيته . وقد صنف كتابا فى احصاء العلوم يعتبره كثير من الباحثين أول موسوعة وضعت فى العالم .

والحق أن فضل العرب على الانسانية فى ميادين العلوم والفنون لاينكره الا جاحد مارق أو ظالم متعصب .

ففى حقل العلوم الأساسية مهر العرب فى « الفيزياء » أى علم الطبيعة ، حتى لقد قيل ان كتب الكندى كانت أساس

Levy Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème siècle. P. 91.

مؤلفات « روجر بيكون Rager Bacon » وقد اهتدى العالم العربى ابن يونس الى الرقاص قبل « جاليليو Jalilia » بسبعة قرون . وقصة الساعة التى أهداها الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور « شارلمان » تدل على طول باع العرب فى الفيزياء .. فقد ذعروا حينما سمعوها تدق وظنوها ضربا من السحر ، أو أن فيها مسا من الجن ، وأورد الطبرى فى كتابه « عيون المسائل فى أعيان الرسائل » جدولا عن الاثقال النوعية للذهب والفضة والزئبق والرصاص والنحاس والحديد والزيت واللبن وغيرها ، وقد قاسها بالنسبة للماء العادى ، فجاء فيها خلاف يسير عما هى عليه اليوم حيث نقاس بالنسبة للماء المقطر. واستطاع البيرونى الذى يعتبره بعض الغربيين أعظم عقلية فى التاريخ ابتداع طريقة أخرى لايجاد الأوزان النوعيه أكثر اتقانا من الأولى . ولعل عبقرية الحسن بن الهيثم أعظم دليل على فضل العرب على العالم فى الفيزياء البصرية خاصة ، حتى ليقولون انه من أعظم مؤسسى هذا العلم شأنا وأكبرهم أثرا .. فقد كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع الأول عند الأوربيين حتى القرن السادس عشر ، ثم جاء من بعده من نسج على منواله واقتفى أثره . فما بدأ به ابن الهيثم أكمله العالم « اسحاق نيوتن » .

وفى حقل الرياضيات نبغ كثيرون ، لعل أشهرهم الكاشى واضع أسس الكسور العشرية . والخوارزمى الذى ظل كتابه الذى الفه فى عصر المأمون عن الجبر والتقابل معينا لعلماء الغرب ردحا طويلا من الزمان ، ولسنا مغالين اذا قلنا ان الخوارزمى

يعتبر واضع علم الجبر ، وهذا ما يقوله الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد موسى أحمد اللذان نشرا مخطوطةالجبر والمقابلة للخوارزمى ، وقد وجداها محفوظة فى جامعة أكسفورد. وفى هـذا الكتاب شرح المؤلف المعـادلات والجذور والرموز الرياضية . ومن هؤلاء أيضا ثابت بن قرة ، وابن حمزة ، ومحمد البغدادى ، والطوسى الذى ألف فى الرياضـيات ، ولا سيما فى المثلثات الهندسية ، كتبا عديدة كما يقول حاجى خليفة فى كشف الظنون ، وأخذ عنها الأوربيون المتأخرون .

ولقد ذاعت علوم الفلك فى عهد أبى جعفر المنصور ، وكان للعرب فضل تطهيره من أدران التنجيم . وفى عصر المأمون الذهبى قام بنو موسى بن شاكر بحساب طول درجة من خط النهـار ، وثبتت كروية الأرض ، وعرف طول السنة الشمسية ، وأقيمت المراصد ، واستعملت فيها الآلات . وكان أحد هذه المراصد فى الشماسية ببغداد ، والاخر على قمـة جبل قاسيون فى دمشق . كما أنشأ الفـاطميون مرصدا على جبل المقطم عرف بالمرصـد الحاكمى . وأنشىء غير ذلك مراصد أخرى .

ويدل على ما أحرزوه من تقدم فى علم الفلك تلك الأسماء التى وضعوها للنجوم والأبراج ، والتى لاتزال باقية بألفـاظها تقريبا فى كل اللغات .. فالعقرب "Acrab" ، والجدى "Algedi" الطائر "Altair" ، وابط الجوزاء "Betelgeuse" ، والسمت "Zemith" كلها أسماء عربية نقلت كما هى الى اللغات الأخرى.

وظهر فى العرب أعــلام من الجغرافيين . ويعتبر الغربيون كتاب الادريسي فى الجغرافيا أعظم وثيقة علمية جغرافية فىالقرون الوسطى ، ويعدون كذلك معجم البلدان لياقوت الحموىمنجما غنيــا جدا للمعرفة ، وليس له ــ فى نظرهم ــ نظير فى ســائر اللغــات (١) . ووضع أبو الفدا « أمير حماه » كتــاب تقويم البلدان الذى ترجم الى اللاتينية فى القرن الثــامن عشر ، وكان مرجع كثير من علماء الغرب .

ويقول «جوستاف لوبون» فى كتابه (حضارة العرب) : لقد قضى الادريسى شطرا من حياته فى اعداد أول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة التى لاتختلف كثيرا عما هو معروف فى عهدنا هذا » (٢) .

ولا بأس من أن نقف وقفة قصيرة عند الادريسى هذا .. فحينما أفل نجم العرب عن صقليــة ، وحكمهــا النورمانديون وجدوا أنه لا منــاص لهم من ادخال اللغة العربية بين اللغــات الرسمية ، وقربوا العلماء العرب ، وحافظوا على آثارهم ، ودعا الملك « روجر الثانى » الشريف الادريسى للتــأليف فى الفلك فوضع كتابه الشهير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ،ووضع خريطة العالم التى أشرنا اليها ، وتوقع وجود أمريكا فى الطرف الثانى من الأرض قبل اكتشــافها بقرون . وقــد نشرت مجلة « نيوزويك » الأمريكية فى عددها الصادر بتاريخ ١٠ من ابريل

(١) انظر كتاب « العلوم عند العرب » ص ١٥٣ تاليف قدرى حافظ طوقان .
(٢) انظر حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر .

سنة ١٩٦١ أن أحد أساتذة جامعة « بنسلفانيا » أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل «كولومبس» بأربعة قرون .

أما فى ميدان الكيمياء فقد برز العرب فيه أيما تبريز ، ويشهد علماء الغرب بأن جابر بن حيان العالم العربى يعد المعلم الأول فى الكيمياء ، وأن له فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق (١)، وله قول مأثور : ان واجب المشتغل فى الطبيعيات والكيمياء هو العمل واجراء التجارب ، وأن المعرفة الحقيقية لا تحصل الا بهما (٢) » . وفى عهده عرف التقطير والتصعيد والتكليس والترشيح ، وكلها عمليات كيمياوية فيزيائية . وعرف العرب كذلك حمض الكبريت الذى ينسب اكتشافه الى أبى بكر الرازى . كما عرفوا حمض الآزوت ، والصودا الكاوية ، والفحمات المعدنية ، وكثيرا من المواد الكيماوية الأخرى .

ولو رجعنا الى ما أثر عنهم لوجدنا وصفا للتجارب المتبعة والعمليات الكيمياوية لا يقل دقة عما يقوم به علماء اليوم من تجارب وعمليات .

ويعتبر الغربيون بأن العرب كانوا أول من أنشأ مصانع الورق فى الأندلس وصقلية ، ومنها انتشرت هذه الصناعة فى أوربا (٣) .

(١) العلوم عند العرب ص ٢٠٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) تاريخ العرب تألف فيليب حتى ٥١/١ (مطول) .

وأما فى نطاق علم الحيوان فلا ينكر أحد أن العرب كانوا من المبرزين فى هذا العلم .. وتجاربهم فى هذا البـــاب معروفة مذكورة . فقـــد عرفوا التهجين وتحســـين النسل والحيوانات اللبونة . والخيول العربية الأصيلة ذات الشهرة العالمية ما تزال شاهدة على ذلك حتى اليوم . ولعل كتــاب الحيوان للجاحظ يعتبر مـــن أروع ماكتب فى علم الحيوان دقة وصـــف واحكام تجارب وطلاوة أدب .

وكان هذا العالم العربى « الجاحظ » من طراز عجيب يدعو الى تقديره حقا . فقد كان باحثا دقيقا مخلصا فى تجاربه .. كان يقطع بعض أعضاء الحيوان ويلقى بها فى السم ويتأمل ،ويستقصى عن البيض ، ويذبح الحيوان ليفتش فى جوفه ، أو يدفنه باهالة التراب الخفيف عليه ليعرف حركاته ، أو يشق بطن الأنثى ليعرف عدد الأجنةوموضع كل واحد منها ،أو يجمع الأضداد ليشاهدها وهى مستبكة فى قتال عنيف . وصدق الوزير ابن العميد حين قال : « ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا » . وقد جمع الجاحظ طريقته فى البحث بتلك الكلمات التى أوردها فى مقدمة كتاب الحيوان : « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ، وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينيك الانصاف » .

وأما فى ميدان العلوم الزراعية فيكفينا فيه ماذكره الدكتور أحمد عيسى فى كتابه « تاريخ النبات عند العرب » .. فقد ذكر

أنهم قاموا بتطوير الزراعة،وتحسين النبـاتات عامة ، ودرسوا مختلف الحشائش والشجيرات والأشجار والبـذور والثمار ، وقارنوا فيما بينها . عرفوا النباتات ذات التسكنين ، وأدركوا طرائق اكثارها . ويذكر المؤلف بالتفصيل تقدم الزراعة بالأندلس خاصة على يد العرب ،، وضروب على ذلك أمثلة عديدة ، من أهمها ما ذكره عن نبـاتات الزينة مستشهدا بقـدرة العرب على أن يستولدوا وردا أسـود اللون بطرائق التطعيم المتوالى ، وأن يحصلوا على نباتات تكتسب صفات العقاقير فى مفعولها الدوائى، وهى طرائق تدعيها اليوم بعض المؤسسات الزراعيـة فى أمريكا وفرنسـا وغيرهما . ولا ينكر علمـاء أوربا أن كتـاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذى وضعه ابن البيطار يعد من أعظم الكتب التى ظهرت فى علم النبات ، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية والفرنسية والألمانية وغـيرها ، واعتمد عليـه العلماء الغربيون ، وأخذوا عنه الشىء الكثير .

وأما فى ميدان الطب فكان العرب هم الفرسان السباقين ، وكانت مؤلفاتهم هى المعتمد الأكبر فى الطب لدى علماء الغرب لعدة قرون . وفى ذلك يقول العلامة المنصف «جوستاف لوبون»: « لقد كانت كتب العرب المرجع الوحيد للدراسـة الجامعية فى أوربا أكثر من خمسة قرون ، وظلت علوم الطب خاصة المصدر الوحيد للدراسة خلال ثمانية قرون ، حتى لقد استمرت جامعة

« مونبلييه » تستشهد بآراء ابن سينا فى قانونه الى أواخر القرن الماضى (١) » .

وقد وجد بين المنصفين من يقدر فضل العرب على الانسانية فى مختلف العلوم ، فخصصت جامعة « برنستون » الأمريكية جناحا فخما لمآثر الطبيب العربى الفيلسوف أبى بكر الرازى ، وأنشأت بجانبه دارا لتدريس العلوم العربية ونقل آثارها المخطوطة الى اللغة الانجليزية .

ولعل الرازى كان أول من أنشأ علم الطب التجريبى ، اذ كان يجرى تجاربه على الحيوانات ، فيجرع القردة الزئبق ، ويختبر تأثيره وتأثير الأدوية على الحيوانات ، ويسجل جميع ما يشاهده بدقة عجيبة . كما كان يعنى بأن يستمع الى المريض وهو يسرد قصته ، ويسأله عن أحواله الحاضرة مفصلا ، وعن سوابقه الشخصية والوراثية ، ويدون جميع ذلك فى سجل خاص يحفظه للرجوع اليه عند الحاجة كما يفعل الأطباء اليوم.والرازى هو أول من عرف الحصبة والجدرى وطرائق المعالجة النفسية .

وأخبرنى أحد الأطباء العرب أن ابن الخطيب ، الطبيب والفيلسوف الأندلسى ، هو أول من أدرك أن المرض ينتقل بالعدوى قبل أن تكتشف الجراثيم ، اذ لاحظ أن من خالط مريضا مصابا بالحمى أو لبس ثيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالط نجا من العدوى .

(١) انظر كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٢٠٤ .

أما الفيلسوف الطبيب ابن سينا فقد أبدع فى وصف الأعضاء وأمراضها ، والأجهزة وآفاتها ، والعلل ومعالجتها وصفا لايزال موضع الاعتبار فى التشخيص حتى اليوم .. فقد وصف القرحة الدرنية ، والقولنج الكبدى والكلوى ، والتهاب الرئة والجنب ، والتهاب الدماغ والسحايا ، ولفت الأنظار الى تبدل شكل الأظافر عند المسلولين .. الى غير ذلك مما جاء فى كتبه التى ألفها فى الطب شعرا أو نثرا .

وقد عرف العرب التشريح ومارسوه ، ويقول العلامة ب.ج. أندريه فى كتابه « الاسلام والعناصر البشرية » : كان الأطباء العرب فى القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية (١) . واكتشف ابن النفيس الدمشقى المصرى الدورة الدموية الصغرى ، ونقلها عنه « هارفى » الانجليزى وعزاها لنفسه .

وقد أورد صاحب كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » أكثر من ثلثمائة طبيب عربى . هذا عدا كثير ممن لم يتح لهم الحظ الشهرة وذيوع الصيت .

ويعترف الغربيون بأن العرب استحدثوا أشياء [illegible] فى الطب ، وأوجدوا علم الصيدلة الكيمياوية وعرفوا [illegible] من النباتات الطبية جاءت فى كتب ابن سينا وابن داود وابن البيطار ، منها على سبيل المثال : الكافور "Camphre" ، والزعفران

P. .. Andre : L'Islam et Les Races. Vol. 2. P. 198.

"Safran" والخزام "Alkhosam" والمر "Myrrhe" ، والمن "Manne" والمسك "Musc" والترياق "Thériaque" والتمر هندى "Tamar Indien" والقطن "Coton" والكحول "Alcool" وغيرها من الألفاظ الكثيرة التى نقلها الغربيون عن العرب وظلت محتفظة بأسمائها العربية (١) كما رأينا .

وهكذا نرى أن العرب كانوا ذوى أثر بليغ وفضـل كبير على الانسانية فى ميادين العلم والمعرفة .. ويقر بذلك المنصفون من علماء الغرب مثل العلامة « روم لاندو » فى كتابه « الاسلام والعرب » اذ يقول : « لقد كان من شـأن الاغريق أن نظموا وعمموا ووضـعوا النظريات ، ولـكن البحث وجلب المعـرفة الايجابية والطرائق الدقيقة فى العلم والملاحظة الدائبة الطويلة ، أمور تتعارض والمزاج الاغريقى ، وهى التى أدخلهـا العرب فى أوربا . فالعلم الأوربى مدين بوجوده للعرب (٢) .

ويقول « جورج سارتون » : انه لعمل عظيم جدا أن ينقل الينا العرب علوم اليونان وفلسفتهم ، وأن يزيدوا عليهـا حتى أوصلوها الى درجة مرموقة من النمو والارتفـاع » ، ثم يمضى سارتون قائلا : « ... وعندما أراد الغرب ــ بعد أن وصل الى درجة كافية من النضج ــ أن يجدد اتصالاته بالفكر القديم أدار

(١) انظر كتاب العلوم عند العرب ص ٢٠٥ وما بعدها .
Rom Landau : Islam and The Arabs. P. 165.

رأسه قبل كل شيء لا الى المصادر الاغريقية ، وانما الى المصادر العربيــة (١) » .

ويقول العلامة « كونديه » فى كتابه « تاريخ الحكم العربى فى أسبانيا » : ان العرب كانوا أساتذة أوربا كلها فى جميع فروع المعرفة ، فقد انتشرت اليها علومهم من مصر وسوريا ابان الحروب الصليبية ، ومن الأندلس ـــ وهى أكبر مركز للتصدير ـــ انتشرت علوم العرب بوساطة التراجمة (٢) .. » .

أما فى الحقل الفلسفى فقد كان لهم فيه القدح المعلى ، اذ درسوا الفلسفة الاغريقية دراســة واعية وهضموها وتمثلوها ؛ واستنبتوا لأنفسهم فلسفة اســلامية خاصة تتركز فى دلالتهــا الكبرى .. فهى تدل أكثر ما تدل على رغبــة العرب الحارة فى المعرفة ونشرها ، والتقاط الحكمة من حيث توجد ، كمــا تدل على شدة ايمانهم بالعقل وبما يؤدى اليه . وكلامهم المأثور من أقدم العصور الى اليوم يشير بوضوح لا مزيد عليه الى وجوب التحلى بالمعرفة والاستزادة من العقل .

تلك هى الروح التى أملت على العرب نبش كنوز الاغريق وهى التى دفعتهم الى احياء ما اندثر من حكمة الهند وفارس . فهم بهذا المعنى « مبــدعون » وليسوا « نقلة » ، وهو المعنى الصحيح الذين يكمن وراء أعمالهم وجهودهم وآثارهم الفلسفية والعلميــة .

---

(١) المصدر السابق .

Condé : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne. P. 96.

والواقع أن الجو الذى خلقه العرب ، وفيه نشأ المفكرون والفلاسفة من كل جنس وملة وبلد هو الذى أتاح لفلاسفة الاغريق أنفسهم أن يعودوا الى الحياة بعد أن ران على آثارهم ركام كثيف من النسيان .

ونحن اذا نظرنا الى الاسلام كثورة دينية وجدنا أنه حركة فكرية أيقظت العرب على واقعهم الاجتماعى والسياسى فى مستهل القرن السابع الميلادى ، وحملتهم على اعادة النظر فى معتقداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فآمن منهم من آمن ، وأصر منهم من أصر على ما كان عليه ، ولكنه حقق انتصارا رائعا فى جميع المعارك الفكرية التى خاضها مع أعدائه سواء فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها .

ولما استقرت الخلافة للعباسيين استعان هؤلاء فى تثبيت سلطانهم بالفرس ومقاومة خصومهم الذين كانوا يعتمدون على العصبية العربية فى حياتهم السياسية ، فنشأ من هذا الصراع حول السلطة جو فكرى يختلف عن الجو السابق اشتركت فيه العناصر « اللاعربية » وساعدت على ايجاده ، اذ كان من شأنه أن يعينها على تحقيق ما تصبو اليه من تنحية العرب عن قيادة الدفة والاستئثار بالتوجيه ، حتى كان لها ما أرادت أخيرا فى عهد البرامكة الذين أدرك الرشيد خطرهم على ملكه فأقصاهم وفتك بهم . ولكن الأمر عاد فالتوى بيد المتوكل وتست الغلبة السياسية على مرافق الدولة للأتراك .

تلك هى الأجواء التى تحولت بها الحكمة العربية القديمة الى فلسفة نظرية ، وظهرت فى بواكير القرن الثامن للميلاد الفرق الفلسفيــة من مرجئة وقدرية وجبرية ومعتزلة ، وعاشت تختصم قرابة قرنين من الزمان ، ثم ظهر اخوان الصفا فى القرن العاشر ، فوضعوا أول موسوعة عرفها تاريخ الثقــافة العالمية ، ولــكن اتجاههم فى الواقع كان يستهدف أغراضا سياسية . وتوالى بعد اخوان الصفا عدد من الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة ، اشــتهر منهم ابن سينا والغزالى فى المشرق ، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن عربى فى الأندلس .

بيد أن الفيلسوف الذى سبق هؤلاء جميعا ، وكان رائد الحركة الفلسفية الجديدة انما كان عربيا صميما ، وهو الكندى الملقب بفيلسوف العرب ، عنــه أخذ الفلاسفة ، وبه اقتــدوا . فاشتغلوا مثله بالرياضيات والطب والموسيقى ، وولوا وجوههم شــطر الأغريق ، يدرســون آثارهم ويعلقون على آرائهــم . ويرفضون منهــا ما لايوافق تفكيرهم ، وينقحون ويحــذفون ويضيفون . وفى كل ذلك كان اســتقلالهم الفكرى هــو الذى يحتل نقطة المركز فى دائرة أعمالهم .

وجاء الفارابى ــ وهو تركى الأصل ــ فســار على غرار الكندى وبذل من الجهود فى الحقول العلميةــ وبخاصة الموسيقى والرياضيات ــ ما جعل أهل الرأى وقادة الفكر يعتبرونه آر مند الثانى فى القرون الوسطى .

غير أن الغلبة ظلت للفكر الديني الاسلامي في أكثر ما أعطى هؤلاء الفلاسفة ، وظلت المثل الأخلاقية العليا العربية هي السائدة وما أصدق « روم لاندو » حين قال : « لو أردنا أن نلخص أهمية الفلسفة الاسلامية في كلمات قليلة لقلنا ، ونحن نضرب صفحا عن نقلها حكمة الاغريق وتأويلها وتنميتها ، انها علمت المفكرين المسيحيين كيف يوفقون بين الفلسفة والدين . بيد أن الأهم من ذلك كله هو أن الفلسفة الاسلامية أضاءت منارة وحيدة في ظلمات القرون الوسطى . وهكذا كانت بعبارة أخرى جسرا بين فلسفة الاغريق وفلسفة ما بعد الانبعاث الأوربي التي يرمز اليها بأسماء سبينوزا وباسكال وديكارت (١) » .

وذلك يدل على أن الفلسفة الاسلامية كانت ذات أثر بالغ في الفلسفة الأوروبية .

من كل ماسبق نستطيع أن نقول في غير ما تحفظ أو احتياط ان الحضارة الاسلامية كانت شديدة الأثر في جميع الميادين الثقافية العلمية الأوربية كما رأينا . وحسبنا أن نذكر أن الثقافة الاغريقية قد وصلت الى أوربا في ذلك العصر بوساطة التراجم والمؤلفات العربية ، وأن كثيرا من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت الى اللاتينية ، حتى ان بعضها فقد أصله العربي ، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية ، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الافرنج قد اتخذت صورة افرنجية ،

---

(1) Rom Landau : Islam and The Arabs. P. 160.

مثال هذا ابن سينا "Avicenna" وابن رشـد "Averroes" والرازى "Rhazes"

وكان طلاب العلم والمعرفة يفدون الى الأندلس من أقطار أوروبا المختلفة ، فكثير منهم جاء من انجلترا مثل « أديلارد "Adelard of Bath" » ، وكثير جاء من ايطاليا (١) .

ونحن اذا أردنا أن نتعرف أثر الأدب العربى فى الآداب الأوربية وجدنا الأمر شاقا عسيرا ، بخلاف الميادين العلمية .. ذلك أن ترجمة الآثار العلمية قد لقيت اقبالا شديدا وتعضيدا كبيرا ، هيهات أن تظفر بمثله الآثار الأدبية . فان عامل المنفعة والفائدة العلمية كان قويا فى الأولى ، ضعيفا فى الثانية . هذا الى أن مسائل العلم وليدة العقل ، والعقل هو هو عند الناس جميعا . أما الأدب فهو وليد العاطفة . والعاطفة تختلف لدى الناس باختلاف الأجناس والبيئات .

وبعض الباحثين قد اضطر لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية العربية لابد أن يكون قد ترجم أيضا الى اللاتينية ، أو الى بعض اللغات الشعبية ، ولكن ليس فى أيدينا اليوم دليل مادى على هذا . ولذلك فان الباحث عن أثر الأدب العربى فى الأدب الافرنجى يتبع فى بحثه طريقة أخرى هى طريقة المقابلة والمضاهاة بين الأدبين ، وملاحظة وجوه التشابه التى لايجوز أن تجىء عفوا .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

فالباحث الذى يرى تشابها دقيقا بين أشعار دانتى وبعض مؤلفات المعرى مضطرا لأن يفترض أن بعض آثار المعرى قد ترجم الى اللاتينية أو الايطالية ، وان لم نعثر على مثل هذه الترجمة بعد .

وكذلك الباحث الذى يرى أن استخدام القافية فى الشعر قد انتقل الى أوربا بوساطة العرب قد تعوزه الأدلة المادية لتحقيق هذه النظرية . ولكنه مضطر لأن يرجح أن للأدب العربى شأنا كبيرا فى مثل هذا التطور ، لأن الآداب الأوربية القديمة ، وعلى الأخص الأدب اليونانى والأدب اللاتينى الواسع الانتشار ، كانا خاليين من القافية . ونحن نلحظ أن القافية تأتى سهلة طيعة فى الشعر العربى ، ولا تأتى بمثل هذه السهولة فى اللغات الافرنجية ، فمن المعقول أن يكون ظهورها فى العصور الوسطى الأوربيـة نتيجة المؤثرات الأدبية العربية (١) .

ومما يجعل المؤثرات العربيـة فى الأشعار الغربية صعبة التحقيق أن أكثرها قد انتقل بوساطة الأغانى والأناشيد والقصص الشعبية التى يتداولها الناس ويتناقلونها شفاها ، ولا يكاد أحد يعنى بتدوينها . ولكن من البديهى أن انتقال الآلات الموسيقية نفسها من الأندلس الى أوربا ، مع ما يصحب هذا من وسائل الارشاد الى كيفية استخدامها والعزف عليها ، يستدعى من غير شك أن تنتقل معها الأغانى والأشعار . وكثير من محترفى الغناء

---

(١) انظر الاشاره الى المذاهب فى كتاب « تراث الاسلام "Legacy of Islam" الاصل الانجليزى ص ٢٧٣ . وهـذا الكتاب الفه جماعة من العلمـاء تحت اشراف الاستاذ توماس ارنولد ، وقد ترجم الى العربية .

الأندلسيين كانوا ينتقلون من بلد الى بلد ويزورون بلادا غير اسلامية فينشدون ويوقعون . وكان الاقبال على غنائهم عظيما فى بلاط الأمراء المسيحيين فى أسبانيا وفى صقلية وايطاليا .

ولابد لنا أن نذكر أن كثيرا من سكان الأندلس الذين اعتنقوا الاسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والاسبانية .وكان الأدباء منهم وسيلة صادقة لنقل الأدب العربى الى الأطراف الشمالية فى أسبانيا ، ومن ثم الى جنوب فرنسا .

وفى العصور الوسطى ظهرت فى أوربا طائفة جديدة من الشعراء المنشدين الذين يجمعون بين التغنى بشعرهم والتوقيع على العود ، يبدو فى أشعارهم الطابع العربى الذى لا يحتمل الشك . وقد أطلق على هؤلاء الشعراء اسم « الطروبادور Troupadaur » ، وهى كلمة يظن أنها مشتقة من لفظ الطرب. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بنظم أناشيد تدور كلها حول النسيب ، وتبدو فيها الصفات المألوفة فى النسيب العربى ، من هوى عذرى مبرح ، ومن حنين وشوق الى محبوبة ممنعة عزيزة المنال ، ومن وفاء ونبل عاطفة . وقد ظهرت فى هذا العصر قصص كثيرة لايشك الباحثون فى أنها مقتبسة من القصص العربية ، وخاصة أخبار العشاق أمثال عروة بن حزام وعفراء ، أو قيس بن ذريح ولبنى .

كذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندلسية فى نظام وزنها وقوافيها . وقد انتشرت فى أول الأمر فى أسبانيا ، ثم فى جنوب فرنسا وايطاليا ، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوربا

الغربية والوسطى . وهذه الأشعار قد أثرت تأثيرا كبيرا فى أشعار الأمم الأوربية ، فهى أساس من أسس الشعر فى الآداب الأوربية الحديثـــة .

ولم تكن الأناشيد والأشعار العربية وحدها هى التى أثرت فى آداب العصور الوســطى الأوربية ، بل لقــد كان للقصص والخرافات والأمثال والنوادر العربية المنثورة أثر كبير أيضـــا . بل لعل اثر النثر فى ذلك العصر أوضح ، فقد ظهرت قصص فى الأدب الفرنسى مثلا تحمل طابعا عربيا لاشك فيه . وحسبك أن قصة من أشهرها ، وهى قصة « أوقاسين ونيقوليت Aucassin et Nicolette » ذات صبغة عربيــة واضحة ، واســم البطل Aucassin ما هو الا تحريف للاسم العربى : القاسم .

وقد ترجمت فى هــذا العهد مجموعات من القصص منقولة عن اللغة العربية ، أهمها من غير شك كتاب كليلة ودمنة الذى ترجم الى الأسبانية واللاتينية فى القرن الثالث عشر ، وانتقل الى البلاد الاوربية المختلفة ، وكان النواة التى نشأ من حولها أدب قصصى عن الحيوان والطير ، وكان له أثره حتى فى أشـــعار لافونتين ناظم الخرافات الشهير . وأشهر قصصـــه تعرف باسم "Fables de La Fontaine"

واذا كانت القصص التى ترجمت واضحة الأثر فى الآداب الأوربيـــة الناشئة ، فان هنالك قصصـــا شعبيا كبيرا كان ينقل بالرواية ، وليس من السهل أن ندرك مدى تأثيره . ومع هـــذ

فان من الواضح أن قصص « ديكاميرون » للكاتب الايطالى « بوكاشيو » تشتمل على قصص عربى مما كان متداولا فى عصره.

وأما تأثر شاعر ايطاليا الأكبر « دانتى "Dante" » بالأدب العربى فأمر يكاد يكون مقطوعا به .. ذلك أن الأدب العربى والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة فى ايطاليا فى عصره . وليس من المعقول أن يكون هذا الشاعر بمعزل عن هذه التيارات الثقافية القوية التى كانت منتشرة فى زمنه . ولم تكن رسالة الغفران للمعرى هى وحدها المورد الذى استقى منه دانتى ، بل كانت هناك أحاديث المعراج والاسراء التى وصلت من غير شك مع الفتح الاسلامى الى صقلية .

على أننا لو أمعنا النظر فى رسالة الغفران المعرى والكوميديا الالهية لدانتى لوجدنا أن أوجه التشابه بينهما ليست سطحية ، بل ان هنالك اتفاقا فى التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عفوا .. مثال ذلك أن الشاعر الايطالى يلتقى فى أثناء طوافه فى الجحيم بالشعراء اللاتين الذين ماتوا قبل المسيحية ، كما قابل صاحب المعرى امرأ القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم فى النار . وهناك غير هذا صور النار وسكانها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيرا فى الأدب المسيحى ، ولها نظائر فى المؤلفات الاسلامية .

ولما ظهرت الترجمة الأولى لكتاب ألف ليلة وليلة انتشرت فى البلاد الأوربية انتشارا شديدا وأقبل القراء عليها بشغف

شديد ، وزادت رغبتهم فى مطالعة آمثالها من القصص الشرقية ، وأخذوا يحاولون النسج على منوالها ، فيؤلفون قصصا ذات موضوع شرقى، أو يتوخون فىقصصهم أن تحتوى علىالمغامرات والحوادث الواردة فى القصص العربية . وقد قال المستشرق « جب » فى كتاب « تراث الاسلام » : انه ليس من الغلو فى شيء اذا قلنا انه لولا كتاب ألف ليلة وليلة لما استطاع دانيل ريفو "Daniel Dafoe" أن يؤلف قصته الشهيرة « روبنصن كروزو » ، ولا استطاع سويفت "Swift" آن يؤلف رحلات جلفر . ويرى بعض الباحثين أن كتاب روبنصن كروزو مبنى على رسالة « حى ابن يقظان » لابن طفيل ، وقد ترجم هذا الكتاب عن العربية فى القرن التاسع عشر .

وفى القرن التاسع عشر أخذ المستشرقون يدرسون الأدب العربى والفارسى دراسة دقيقة ، وينقلون الآثار الأدبية العربية خاصة الى الفرنسية والألمانية والانجليزية . وأخذت الروح الشرقية تظهر فى الأدب الافرنجى بصورة جديدة قائمة على الدراسة العميقة للآداب الشرقية . وفى ألمانيا بوجه خاص ظهرت آثار هذه الدراسة فى الانتاج الأدبى . ولعل أشهر مؤلف تأثر بالأدب العربى والفارسى عن طريق المستشرقين هو شاعر ألمانيا الأكبر « جوته » الذى نظم كتابا كاملا سماه « ديوان الشرق والغرب » ، استمد موضوعاته كلها من الأدب العربى والفارسى.

وهكذا نرى أن الأدب العربى قد أثر فى الآداب الافرنجية فى العصور الوسطى ، وفى الأزمنة الحديثة .

فهرس الـــكتاب



مؤسسة

دار التحرير للطبع والنشر

مطابع شركة الإعلانات الشرقية

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

لجنة القرآن المرتل

تسر لجنة القرآن المرتل أن تعلن عن بيع ..

- رواية حفص عن عاصم ، ترتيل الشيخ محمود خليل الحصري
  ٤٤ اسطوانة
  بالغلاف الفاخر بثمن ٢٣٫٧٩٦
  بالغلاف العادي بثمن ١٩٫٣٢٢
  السرعة ٣٣ ١/٢

- رواية ورش عن نافع ، ترتيل الشيخ محمود خليل الحصري
  ٦٨ اسطوانة
  الثمن ١٥٫٣٥٠ جنيه
  السرعة ٣٣ ١/٢

- كما يسر اللجنة أيضا أن تعلن عن بيع مجموعة الاسطوانات لتعليم الصلاة باللغات العربية والانجليزية والفرنسية



الاسطوانة الأولى شاملة للأذان . والثانية تشمل كيفية الوضوء . والخمس اسطوانات الأخرى على كل منها صلاة من الصلوات الخمس . وأمام كل اسطوانة كتيب يشرح كل حركة . بالكلمة وبالصورة

الثمن ٥٠ خمسون قرشا

مواعيد البيع :
من الساعة ٩ صباحا إلى الساعة ٢ مساء و من الساعة ٥ مساء إلى الساعة ٩ مساء
ما عدا أيام الجمعة والعطلات الرسمية

العنوان:
القاهرة : معرض القرآن المرتل ٧٦ شارع الجمهورية ت ٩١١٧٠٨
الإسكندرية : فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٤٢ شارع سعد زغلول ت ٢٨٦٦٢

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

الثمن ٥ قروش